مقدمة ودراسة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلىٰ آله وصحبه الغر الميامين ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وبعد، فإن العمل علىٰ تحقيق التراث العربي الإسلامي ونشره علىٰ الملأ، هو أقل ما يجب علىٰ أبناء أمتنا العربية الإسلامية؛ لتصل من أمجادها ما قطعته يد الحدثان وعوادي الزمان. وإذ كان اللسان العربي هو وعاء هٰذه الحضارة العالمية والتراث الإنساني منقطع النظير، وهو في الوقت نفسه أداتها الفاعلة، ولسانها الفصيح، وفكرها الناطق المعبر، فإن أقدر الناس علىٰ العناية بهٰذا التراث أملكهم لزمام هٰذا اللسان، وأخبرهم بأساليبه وأعلمهم بفنون التعبير به وبتشعب مدلولاته ليستوعب موضوعات العلوم المختلفة.

ولما كان التراث يعني ما ورثناه عن الأقدمين، وما بقي للخلف من علوم السلف وفكرهم وأعمالهم ومنجزاتهم، فإن بإمكاننا أن ننظر إلىٰ التراث كله علىٰ أنه نوع من التاريخ، أو أن نرىٰ التاريخ هو التراث، والتراث هو التاريخ..

ومن أجل هٰذا وبسببه نجد كتبنا القديمة التي تحوي كنوز تراثنا لا تخلو من تاريخ يختلط بأي علم تخوض فيه، بل لم تكن العلوم فيها متمايزة إذا نظرنا إلىٰ الغالب علىٰ أمرها، ففي كتب الفلسفة فقه وتوحيد وعبادات وعلوم طبيعية وطب وأخلاق.. وفي كتب الدين قرآن وحديث وفقه وتاريخ ومنطق.. وأكثر ما نجد هٰذا الاختلاط والتمازج بين السنَّة والتاريخ، فما السنة الشريفة إلا

مأثورات وطرق انتهجها رسولنا ﷺ وتبعها صحابته، فنحن نتلمس آثارهم لنقتفيها. .

ومن خلال البحث عن السنة والتثبت من أمرها والتفقه فيها، ومن حول هٰذا البحث نبتت أشجار وفسائل لعلوم عدة منها التاريخ وعلم الحديث وعلم الرواية والأسانيد وعلم تمييز صحيح الحديث من موضوعه، ومعرفة الرجال ودراسة أحوالهم لتمييز الصالح من الفاسد، والموثوق من الضعيف، والضابط من المخلِّط. . . وما كان لأحد أن يخوض في هٰذا الخضم ما لم يحدد سلاحه وعدته، وما لم يعرّف الناس بمن أخذ عنهم العلم، فقد كان أسلافنا شديدي الحرص علىٰ توثيق المعلومات عامة، وما يتصل منها بالدين خاصة؛ فكان أحدهم إذا روىٰ خبراً أو أتىٰ بعلم يتوجب عليه أن يبين من أين أتىٰ به، وكيف وصل إليه.

وإذا كنا في زماننا هٰذا نعتز باسم المؤسسة العلمية التي انتسبنا إليها وتلقينا فيها علومنا، ونلنا منها إجازاتنا، ونبرز الشهادات الموثَّقة التي تثبت ذٰلكَ، فقد كان علماؤنا أيضاً يعتزون بشيوخهم وأساتيذهم، ويبرزون للناس الإجازات التي حصلوا عليها منهم. . وكما يحرص أحدنا علىٰ جمع شهاداته العلمية وتسجيل كل منها بدرجته ومكانه وزمانه، كانوا هم أيضاً يحرصون علىٰ تسجيل أسماء شيوخهم وتحديد أماكن التقائهم بهم، وتدوين العلم الذي أخذوه عنهم.

وشاع هٰذا الأمر فيهم، وخاصة عند من كان منهم عاملاً في مجال علم الحديث لكي يكون ذكرهم لمشايخهم شاهداً علىٰ صحة نقلهم للعلم عنهم ودليلاً علىٰ اتصال إسناد ما يروونه إلىٰ قائله الأول، سواء أكان سيدنا محمداً ﷺ أو أحد صحابته أو التابعين أو الخلفاء أو الملوك أو العلماء. . . فقد كانوا في كل ذٰلكَ يحرصون علىٰ اتصال إسناد العلم من مبلغه الأخير إلىٰ مبدعه الأول.

وهكذا ظهرت كتب المشيخات التي سنتكلم عليها بشيء من التفصيل فيما بعد، ومنها هٰذا الكتاب الذي بين أيدينا، وهو معجم الشيوخ لمحدث الشام ومؤرخها الحافظ ابن عساكر الدمشقي. . .

ومهما كان الكتاب الذي نسعىٰ إلىٰ دراسته وتحقيقه وإخراجه للناس، وكائناً من كان المؤلف الذي نريد التعريف به، فهو علىٰ كل حال ظاهرة علمية تاريخية، وحلقة من سلسلة التراث يجب إبرازها من خلال الحقبة التي ظهرت فيها؛ لنتبين العوامل والظروف التي ساهمت في تكوينها. ولهٰذا سأتحدث عن أهم الأحداث التاريخية التي ألمت ببلاد الشام في أواخر القرن الخامس وخلال القرن السادس للهجرة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم.

* * *

أ- عصر المصنف

وأبرز الحوادث التاريخية فيه

ولد الإمام الحافظ ابن عساكر في نهاية القرن الخامس الهجري سنة ٤٩٩، وتوفي سنة ٥٧١، فهو من أعلام القرن السادس الهجري وقد وعىٰ معظم ما جرىٰ في هٰذا القرن، وعاش أحداثه، وتفاعل معها وتأثر بها، ورأىٰ بعينه ما ألمَّ ببلاد المسلمين عامة وبلاد الشام خاصة، وسعىٰ جهده في كشف الغمة عنها بقلمه وعلمه وتحريض ذوي السلطان بشعره ونثره حتىٰ يحققوا للناس آمالهم وللمسلمين عزتهم.

استهل صاحبنا الشيخ الحافظ وقد تدجت ظلمات كثيفة أتت من أوربا لتجثم علىٰ بلاد الشام، وتدنس قدسها، فتغير، وتخرب، وتفتك، وتجوس خلال ديار المسلمين فتعيث فيها فساداً خلال ما يقرب من قرنين من الزمن، رمت بجرانها في بلاد الشام، وامتدت شرورها حتىٰ وصلت مصر وتونس وجزر بحر الشام (المتوسط) الذي كاد يصبح بحيرة عربية مسلمة.

قبل ذٰلكَ القرن إبان عز دولة الإسلام كان الحكام، ومنهم حكام الشام وما حولها يتطلعون إلىٰ الأفق البعيد، ويدفعون خيولهم المباركة إلىٰ الأمام، ينشرون في الأرض حيث حلوا سلطان التوحيد والعلم والازدهار، ويخرجون الناس من ظلام الكفر إلىٰ نور الإيمان، ومن ذل الشرك إلىٰ عز التوحيد، وكان همهم التنافس في أداء الرسالة التي شرف الله بها هٰذه الأمة، فهم يسعون إلىٰ نشر نور الإسلام وحضارته، ويرفعون راياته خفاقة في مشارق الأرض ومغاربها، فبارك الله خطواتهم وأنجح مساعيهم، فعظم سلطانهم، وازدهرت

حضارتهم، واتسعت بلدانهم تحت لواء الخلفاء الراشدين ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ـ فالأمويين فالعباسيين الأوائل الذين كان السلطان فعلاً بأيديهم. . ثم تعددت السلاطين وعمل الزمن في أكثرهم عمله، ووسوس الشيطان وسوسته، فركنوا إلىٰ الدنيا وحلاوتها، وإلىٰ المُلك وزينته، والتفت كل منهم إلىٰ ما بيد الآخر يريد انتزاعه منه وضمه إلىٰ ما عنده، وكل همه أن يوسع سلطانه ويزيد في ملكه، وعم البلاء بتنازع الأمراء والسلاطين في آسية وأفريقية وأوربة:

ففي الأندلس سقطت دولة الخلافة الأموية، وحلت محلها دويلات احتدمت بينها الحروب والمنازعات، فتجرأ عليها أعداؤها، حتىٰ لقد فرضوا الجزية علىٰ بعضها، وسقطت طليطلة في أيدي الفرنجة سنة ٤٧٨، ولنسمع رأي المؤرخ العربي ابن الأثير في سبب هٰذه الهزيمة إذ قالَ: «وسبب ذٰلكَ أن الأذفونش ملك الفرنج كان قد قوي شأنه، وعظم ملكه، وكثرت عساكره، مذ تفرقت بلاد الأندلس وصار كل بلد بيد ملك، فصاروا مثل ملوك الطوائف، فحينئذ طمع الفرنج فيهم، وأخذوا كثيراً من ثغورهم»[١].

وفي سنة ٤٨٤ استولوا علىٰ جميع صقلية[٢].

وفي بغداد ضعف سلطان الخليفة العباسي، فسيطر السلاجقة السنيّون علىٰ بلاد المسلمين في آسية، والفاطميون المتشيعون علىٰ مصر وشمال إفريقية، وتمزقت بلاد الشام بين الطرفين المتنازعين، فغلب الفاطميون علىٰ السواحل والقدس، وبقي سائر بلاد الشام في أيدي السلاجقة. .

ولم يقف الأمر عند حد، فبعد موت ملكشاه السلجوقي الذي خُطب له علىٰ المنابر من حدود الصين إلىٰ آخر الشام[٣] وقعت البلاد في حروب ومنازعات بين أولاده الأربعة أنهكت العباد وجزأت البلاد فآلت إلىٰ أربع سلطنات مستقل

---

(١) الكامل في التاريخ ١٠: ١٤٢.
(٢) الكامل في التاريخ ١٠: ١٩٣.
(٣) الكامل في التاريخ ١٠: ٢١١.

بعضها عن بعض: فارس وكرمان والعراق والشام، وكثيراً ما قتل السلاطين بعضهم بعضاً فآل الحكم إلىٰ أبنائهم وهم أطفال صغار، مما أدىٰ إلىٰ علو شأن الأتابكة وهم الذين يتولون تربية هؤلاء الأطفال ويشرفون عليهم، ويدبرون شؤون البلاد ريثما يكبرون، فما لبث الأتابكة أن انخلعوا من طاعة السلاطين ورأوا أن يمكنوا لأنفسهم في الحكم بدلاً من أن يحفظوه لغيرهم.

وكان حظ بلاد الشام من الخلافات والمنازعات وما تجره من البلايا عظيماً، فبعد مقتل حاكمها تتش بن ألب أرسلان تنازع ولداه دقاق ورضوان الحكم ودارت بينهما حروب تقاسما علىٰ أثرها بلاد الشام، واتخذ رضوان حلب عاصمة له، واتخذ أخوه دمشق عاصمة له[١].

وفي مصر بعد اختفاء الحاكم بأمر الله ونهايته الغامضة وزوال عهده بما فيه من بلايا واضطرابات، سقطت البلاد في مهاوي الحروب والفتن وعمتها المجاعات، فلم تبق ـ رغم قوة أسطولها البحري ـ قادرة علىٰ حماية سواحل الشام التي كانت تسيطر عليها ولا القدس التي انتزعتها من السلاجقة عام ٤٩٢[٢] بدعوىٰ حمايتها من الفرنج زمن انشغال رضوان ودقاق بمنازعاتهما.

هكذا كانت الحال الغالبة علىٰ الحكام في تلك الحقبة؛ اشتد بأسهم بينهم ففشلوا وذهبت ريحهم، وظلموا وتعسفوا فسُلِّطَ عليهم عدو أتاهم من أقصىٰ الأرض ينتزع ما بأيديهم، ويدوس حضارتهم ومقدساتهم، ويدمر بنيانهم، ويجثم بظلامه وجهله علىٰ صدرهم، فلا ينزاح عنه بعد قرنين من الزمن إلا وقد أوهىٰ قواهم، وكاد يزهق أنفاسهم.

زحف إلىٰ بلاد الشام شذاذ الآفاق الذين انطلقوا من غرب أوربا وتجمعوا من كل حدب وصوب فيها، يشدهم إلىٰ المشرق[٣] ما سمعوه عن حضارته

---

(١) الكامل في التاريخ: ١٠: ٢٦٩.

(٢) الكامل في التاريخ: ١٠: ٢٨٣.

(٣) مراجع لأسباب الحروب الصليبية: خطط الشام ١: ٢٤٨ وما بعدها، وقصة الحضارة=

ورقيه ورخاء العيش فيه، ويجتذبهم الطمع في كنوزه وثرواته، ويغريهم تشتت حكامه وتفرق أهوائهم ـ وقد رأوا نماذج من كل هٰذا في الأندلس ـ ويجمعهم الحقد علىٰ أهله، ويشد عزيمتهم اليأس مما في بلادهم من فقر وجهل وحروب وأوبئة، ويشحذ همتهم ما زينه لهم ملوكم ورهبانهم من الاستيلاء علىٰ الأرض المباركة ليعيشوا فيها بسعادة وأمان، وما بذل لهم تجار البندقية وجنوة وبيزة ـ وأكثرهم يهود ـ من مال وسلاح، آملين امتلاك الموانىء علىٰ الساحلين الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط، كي تكون مراكز لتجارة الغرب في الشرق.

وأثمرت جهود الداعين لغزو المشرق علىٰ اختلاف نواياهم ومشاربهم ثمرها المر؛ فهٰذا بطرس الراهب يطوف أنحاء أوربة، راكباً حماره، حاملاً صليبه، يستثير عواطف المسيحيين إذ يضخم المصائب التي حلت بحجاجهم إلىٰ القدس، وكانت الأسباب الحقيقية لتلك المصائب انعدام الأمن في السبل، وتنازع السلاطين علىٰ القدس، وهو بلاء عم المقيمين والزائرين علىٰ اختلاف أديانهم، لكن ذٰلكَ الراهب صوره علىٰ أنه تنكيل متعمد ووحشية من المسلمين استهدفت الحجاج من النصارىٰ.

تجول بطرس الراهب في البلاد، وخطب في الناس، وأشعل النار في قلوبهم، فتجمعت جماهير المتحمسين في فيالق خمسة سارت مسيرتها الفوضوية من الغرب إلىٰ الشرق، وسماها المؤرخون «الحملة الصليبية

= ٤/ ١١ وما بعدها، والحركة الصليلبية للدكتور عبد الفتاح عاشور، والحروب الصليبية بين المشرق والمغرب لمحمد العروسي، والشرق الأوسط والحروب الصليبية.. وينظر: «أوربا في العصور الوسطىٰ» د. سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة ١٩٩١ الجزء الثاني ففيه الحديث عن النظم الدينية والنظام الإقطاعي وأثرهما علىٰ المجتمع والاقتصاد، و«الحروب الصليبية الأولىٰ» د. حسن حبشي ط. دار الفكر العربي، ففيه تحليل للدوافع الدينية والسياسية، وكتاب موسوعة الحضارة الإسلامية الجزء الخامس، ففيه إجمال لأسباب الحروب الصليبية.

الشعبية» فكانت تلقىٰ الترحيب والمساعدة في بداية الأمر، ثم الضيق والتذمر في شرق أوربة، ثم تخلص منها امبراطور القسطنطينية بأن أوصل الجموع المتدفقة بسفنه إلىٰ آسية الصغرىٰ، حيث تلقفهم المسلمون السلاجقة فأفنوهم عن آخرهم.

ولم تخلف هٰذه الحملة أثراً يذكر في بلاد المسلمين، إلا أنها كانت بنهايتها المفجعة للفرنج ذريعة لتجميع حملات جديدة بهدف الانتقام. وهكذا تتالت الحملات الصليبية علىٰ بلاد الشام تضم الآلاف المؤلفة من المحاربين. . منهم الفرسان الذين افتقدوا مجالاً يصولون فيه، ولا حرفة لهم إلا القتال فتحولوا إلىٰ لصوص يعيثون في الأرض فساداً، ومنهم حكام الإقطاعيات الذين هاضهم قتال بعضهم بعضاً وخرب مزارعهم وممتلكاتهم، فساحوا في الأرض يسعون إلىٰ التعويض عنها في بلاد الخصب والخير، ومنهم الملوك الذين أضمروا نية التفوق علىٰ سلطة البابا ورجال الدين والتخلص من ربقتهم، ومنهم رجال الكنيسة الغربية أتباع البابا في رومة الذين طمعوا في إعادة الكنيسة الشرقية إلىٰ سيطرتهم بحجة مساعدة البزيطيين علىٰ رد خطر المسلمين ـ وكان المسلمون قد ضربوا ثغورهم المرة تلو المرة بقوة وجرأة ـ ومنهم أقنان الأرض الذين أرهقتهم العبودية فتطلعوا إلىٰ الحرية ولو خسروا من أجلها أورواحهم وهي كل ما يملكون، ومنهم البسطاء المتدينون الذين يبحثون عما ينقذهم من خواء القلب ومرارة العيش وضلال السعي، فزادهم رجال دينهم ضلالاً إذ أججوا نيرانهم بحطب الحقد، وقادوهم بسياط التهديد بالحرمان من رحمة الله، وأغروهم بصكوك الغفران، وتعهدوا لهم بالفوز بالجنة في الآخرة، والنعيم والرخاء في ظل الديار المقدسة في الدنيا. . .

وهكذا زحفوا بجموع أكبر وتنظيم أفضل، وساعدهم سكان البلاد التي عبروها فتغلبوا علىٰ السلاجقة في قونية[1] وما حولها، ثم اتجه أحد فيالقهم إلىٰ

---

(١) قونية: بالضم ثم السكون ونون مكسورة وياء مثناة من تحت خفيفة: من أعظم مدن =

الرها[1] حيث أسسوا إمارة لهم فيها بمساعدة سكانها الأرمن. واتجه فيلق آخر إلىٰ أَنْطاكِيَة[2] فحاصرها، وصمدت للحصار تسعة أشهر ثم انهارت بعد أن استعان المحاصِرُون ببعض الخونة من سكانها، فاستولوا عليها سنة ٤٩١ هـ[3]، وكاتبوا صاحبَيْ حلب ودمشق بأنهم لا يقصدون غير البلاد التي كانت بيد الروم مكراً منهم وخديعة حتىٰ لا يساعدا صاحب أَنْطاكِيَة[4]، لكنهم ما لبثوا أن اندفعوا إلىٰ مدن الشام المجاورة لهم ينهبون ويقتلون ويسلبون، فدخلوا مَعَرَّة النُّعْمان[5]، وقتلوا من أهلها ما يزيد علىٰ مئة ألف في ثلاثة أيام[6]، وفرضوا الإتاوات علىٰ شَيْزَر[7] وحمص وغيرها، فما تمكنوا منه بالقوة أو

= الإسلام بالروم وبها وبأقصرىٰ سكنىٰ ملوكها وبها قبر أفلاطون الحكيم. معجم البلدان ٤ : ٤١٥.

(١) الرُّها بضم أوله وتمد وتقصر، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ معجم البلدان (٣: ١٠٦) قرب أورفة التركية إلىٰ الشرق منها.

(٢) أنطاكية بالفتح ثم السكون والياء مخففة، قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير. قاله ياقوت في معجم البلدان ١ : ٢٦٦ . قلت: وفي أثناء الانتداب الفرنسي علىٰ سورية انتزعت منها وهي وما حولها وضمت إلىٰ تركية قبيل الحرب العالمية الثانية فكانت إحدىٰ الصفقات السياسية والتحالفات التي سبقت تلك الحرب.

(٣) الكامل في التاريخ ١٠ : ٢٧٤.

(٤) الكامل في التاريخ ١٠ : ٢٧٥.

(٥) معرة النعمان مدينة كبيرة قديمة مشهورة ماء أهلها من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين قال ياقوت: إنهامن أعمال حمص بين حلب وحماه. معجم البلدان ٥ : ١٥٦. قلت: وهي ما تزال عامرة في شمال غرب سورية تابعة لمحافظة إدلب.

(٦) الكامل في التاريخ ١٠ : ٢٧٨.

(٧) شيزر: بتقديم الزاي علىٰ الراء وفتح أوله، قلعة تشتمل علىٰ كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يقوم في وسطها نهر أرنبطىٰ [في المطبوع «الأردن» وهو تصحيف وهو النهر الذي يعرف الآن باسم «العاصي»] عليه قنطرة في وسط المدينة، أوله من جبل لبنان، تعد في كورة حمص، وهي قديمة دخلها أبو عبيدة بن الجراح صلحاً سنة ١٧ هـ. معجم البلدان (٣: ٣٨٣). =

الخديعة أعملوا فيه السلب والنهب والقتل، وما صانعهم وفاوضهم حكامه حرصاً علىٰ أرواح البشر فرضوا عليه الجِزَىٰ . .

وظل الضعف والاختلاف والحروب والمنازعات بين حكام المسلمين يعمل عمله المدمر حتىٰ كانت الطامة الكبرىٰ باستيلاء الصليبيين علىٰ القدس بعد حصار دام نيفاً وأربعين يوماً سنة ٤٩٢ هـ

ومن ذا الذي يجهل ما حل بها وبسكانها عند ذاك ؟! إن وصف الفظائع والمذابح التي ارتكبها حاملو الصليب الأتقياء يملأ صفحات سوداء كثيرة من كتب المؤرخين علىٰ اختلاف أجناسهم ودياناتهم[1] .

لقد قتلوا في المسجد الأقصىٰ وحده ما يزيد علىٰ سبعين ألفاً، فيهم كثير من أئمة المسلمين وعلمائهم وعُبَّادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذٰلكَ الموضع الشريف، وسرقوا كنوز الأقصىٰ ومسجد الصخرة، وجعلوها مأوىٰ لخنازيرهم، وسَبَوا النساء، وقتلوا الولدان، ولم ينج من همجيتهم مسلم ولا مسيحي ولا يهودي من أهل القدس، حتىٰ أولئك الذين احتموا بالمسجد الأقصى وهيكل سليمان، والذين اعتصموا بأديرتهم أو بيوتهم؛ فقد استبيح كل شيء ونهب كل شيء، وطُرد الناس من أوطانهم، وأُزهقت الأرواح، وجرت الدماء حتىٰ كان رُشاشُها يصيب الفرسان وهم راكبون. . .

نعم، لقد انطلقت من الشام ومصر عدة حملات لمجاهدة الفرنجة، وقاوم أهل البلاد ما استطاعوا، لكن جهودهم لم تغنِ عن البلاد ولا عن العباد، وقد أوجز ابن الأثير ووضع يده علىٰ مكمن الداء حين قال[2] : «اختلفت السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد». ورسم أبو شامة المقدسي صورة الحال آنذاك

(١) انظر مثلاً: البداية والنهاية لابن كثير ١١ : ١٥٦، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠ : ٢٨٣، وتاريخ ابن خلدون ٥ : ١٨٤، وحضارة العرب لغوستاف لوبون ٢٨٧، وموسوعة الحضارة الإسلامية ٥ : ٣٧٥. . وغيرها.

(٢) الكامل في التاريخ ١٠ : ٢٨٤.

فقال[١]: «وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار في البلاد شرهم، وامتدت مملكتهم من ناحية مارِدين[٢] وشبختان إلىٰ عريش[٣] مصر، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق، وكانت سراياهم من ديار بكر[٤] إلىٰ آمد[٥]، ومن ديار الجزيرة إلىٰ نَصِيبين[٦] ورأس

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ١ : ٣٠.

(٢) ماردين: بكسر الراء والدال كأنه جمع مارد جمع تصحيح، قلعة مشهورة علىٰ قنة جبل الجزيرة مشرفة علىٰ دُنَيْسِر ودارا ونصيبين وذٰلكَ الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات، ودورهم كالدرج، كل دار فوق الأخرىٰ، وكل درب يشرف علىٰ ما تحته من الدروب. . والذي لا شك فيه أنه ليس في الأرض كلها أحسن من قلعتها ولا أحصن ولا أحكم. معجم البلدان ٥ : ٣٩.

(٣) العريش: مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام علىٰ ساحل بحر الروم في وسط الرمل، قيل إن أخوة يوسف حين استوقفوا في طريق عودتهم من فلسطين بتهمة السرقة عملوا لهم عريشاً يستظلون تحته من الشمس فسمي الموضع العريش. ومدينة العريش مدينة جليلة وهي كانت حرس مصر أيام فرعون، وهي آخر مدينة تتصل بالشام من أعمال مصر وهواؤها طيب وبها سوق كبير وفنادق جامعة كبيرة ووكلاء للتجارة ونخل كثير. معجم البلدان ٤ : ١١٣.

(٤) ديار بكر: بلاد كبيرة واسعة، تنسب إلىٰ بكر بن وائل بن قاسط. . وحَدُّها ما غَرَّب من دجلة إلىٰ بلاد الجبل المطل علىٰ نصيبين إلىٰ دجلة ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين، وقد يتجاوز دجلة إلىٰ سِعْرِت وحِيزان وحيني وما تخلل ذٰلكَ من البلاد، ولا يتجاوز السهل. معجم البلدان ٢ : ٤٩٤.

(٥) آمِد: بكسر الميم، أعظم مدن ديار بكر، وأجلها قدراً، وأشهرها ذكراً، وهو بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود علىٰ نشز دجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال. معجم البلدان ١ : ٥٦.

(٦) نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح، مدينة عامرة من بلاد الجزيرة علىٰ جادة القوافل من الموصل إلىٰ الشام، وفيها وفي قراها علىٰ ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان؛ بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام، وعليها سور كانت الروم بنته وتممه كسرىٰ. فتحت صلحاً زمن عمر. معجم البلدان ٥ : ٢٨٨.

عَيْن[1]، وأما أهل الرَّقَّة[2] وحرَّان[3] فكانوا معهم في ذل وهوان، وانقطعت الطريق إلىٰ دمشق إلا علىٰ الرحبة[4] والبر، ثم زاد الأمر وعظم الشر حين جعلوا علىٰ كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة[5] يأخذونها منهم، ليكفوا أذيتهم عنهم. . ثم لم يقنعوا بذٰلكَ حتىٰ أرسلوا إلىٰ مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أُخذ من بلاد الروم والأرض وسائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند أربابهم، والعود إلىٰ أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العودة إلىٰ أهله أخذوه، وناهيك بهٰذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً. وأما أهل حلب، فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها حتىٰ في الرحا التي علىٰ باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة. وأما باقي بلاد الشام فكان حال أهلها أشد من حال أهل هذين البلدين. . ».

وها هي ذي صورة أخرىٰ يرسمها الشاعر أبو المظفر الأبِيوَرْدي شعراً يستثير الهمم، وينادي أهل العراق وحكامه لنصرة الشام وأهلها[6]:

---

(١) رأس عَيْن: والعامة تقول «رأس العين» مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودُنَيْسِر، وهي إلىٰ دنيسر أقرب، وفيها عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور. . . معجم البلدان ٣: ١٣.

(٢) الرقة: عَرف بها مفصلاً في الكتاب. انظر ص ٢٦٩ الرواية رقم ٣١٦.

(٣) حَرَّان: بتشديد الراء وآخره نون. . قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان، وهي علىٰ طريق الموصل والشام والروم. فتحت صلحاً أيام عمر بن الخطاب. معجم البلدان ٢: ٢٣٥.

(٤) الرَّحْبة: يطلق هٰذا الاسم علىٰ عدة مواضع، ولعل المراد به هنا رَحبة مالك بن طوْق، وبينها وبين دمشق ثمانية أيام، ومن حلب خمسة أيام، وإلىٰ بغداد مئة فرسخ، وإلىٰ الرقة نيف وعشرون فرسخاً، وهي بين الرقة وبغداد علىٰ شاطىء الفرات أسفل من قرقيسيا. معجم البلدان ٣: ٣٤.

(٥) الإتاوة، ضبطها مثل كتابة وهي الرشوة والخراج والمكس وما أشبه.

(٦) انظر القصيدة في ديوان الأبيوردي ٢: ١٥٦ و١٥٧ والكامل في التاريخ ١٠: ٢٨٤، والبداية والنهاية ١٢: ١٥٦.

مَزَجْنَا دماءً بالدموعِ السَّواجِمِ[١] فلم يبقَ منَّا عَرْصَةٌ للمَرَاحِمِ
وشَرُّ سلاحِ المرءِ دمعٌ يُفِيْضُهُ إذا الحربُ شُبَّتْ نَارُها بالصوارمِ
أتهويمةً[٢] في ظلِّ أمنٍ وغبطةٍ وعيشٍ كنُوَّارِ الخميلةِ ناعمِ؟!
وكيف تنام العين ملءَ جفونِها علىٰ هَفَوات أيقظت كلَّ نائمِ؟!
وإخوانكم بالشام يُضحي مَقِيلُهم ظهورَ المذاكي أو بطونَ القَشَاعمِ[٣]
تسومهمُ الرومُ الهوان، وأنتمُ تجرّون ذيلَ الخَفْضِ[٤] فِعْلَ المُسَالِمِ
أَتَرضىٰ صناديدُ الأعاريب بالأذىٰ وتُغْضي علىٰ ذلٍّ كُمَاةُ[٥] الأعاجمِ
دَعَوْنَاكمُ والحرب ترنو مُلِحَّةً إلينا بألحاظِ النسور القشاعمِ
تراقبُ فينا غارةً عربيةً تُطيلُ عليها الرومُ عَضَّ الأباهمِ
فإنْ أنتم لم تغضبوا بعد هٰذهِ رَمَيْنَا إلىٰ أعدائنا بالجرائمِ

واستمر الغيورون علىٰ حرمة البلاد والدين ينادون بجمع الكلمة وتوحيد الصفوف، حتىٰ أخذ بعض حكام المسلمين وسلاطينهم يَدَعُون مصالحهم لمصلحة البلاد، ويتعاونون ضد العدوان[٦] تاركين ثاراتهم وخلافاتهم الشخصية إشفاقاً علىٰ ديار المسلمين من أعدائهم حملة الصليب. واستقر الأمر في دمشق لطغتكين الأتابكي سنة ٤٩٧ وحسنت سيرته في أهلها، فتعاونوا علىٰ صد هجمات الفرنجة، والإغارة علىٰ مواقعهم، فظلوا معهم في كرٍّ وفرٍّ حول

(١) سجم الدمع سجوماً: سال.
(٢) التهويمة هَزُّ الرأس من النعاس.
(٣) المذاكي: الخيل العتاق المسان التي أتىٰ عليها بعد قروحها سنة أو سنتان. والقشاعم جمع قَشْعَم مثل جعفر وهو النسر الضخم.
(٤) الخَفْض: الدَّعَةُ والسكون.
(٥) الكُماة: جمع كَمِيّ وهو لابس السلاح.
(٦) انظر مثلاً ما قاله ابن الأثير في ذكر حال قاضي جبلة، الكامل في التاريخ ١٠ : ٣١٠ ـ ٣١٢، وكذٰلكَ ما قاله في عمل التركماني سقمان، الكامل في التاريخ ١٠ : ٣٧٥.

مدينة دمشق، ومنعوها منهم طوال مدة حكمه التي استمرت خمساً وعشرين سنة.

في ظل هٰذه الصحوة شبَّ ابن عساكر، وقد بدأت أشعة النور تخرق دياجي الظلام، ولا أقول أشعة الأمل تغلب ظلمات اليأس، فأهل الشام لم ييأسوا يوماً من استنقاذها من أيدي الغاصبين، بل ظلوا صابرين مرابطين واثقين أن الحق لن يضيع ما بقي له مطالب، وأن علىٰ الباغي تدور الدوائر، لكن كان ينقصهم التنظيم والتعاون وإخلاص النية من السلاطين والحكام، فكنت ترىٰ أهل كل مدينة من مدنها يرحبون بأي حاكم مسلم يمد سلطانه عليها، فينضمون إلىٰ حكمه طائعين مختارين، متىٰ رأوا أنه هو الأقوىٰ، ولمسوا من نواياه أنه يريد التصدي للغزاة الغاصبين.

فمذ سيطر عماد الدين زنكي علىٰ الموصل، وأخذ يجاهد الفرنج، ويضم إلىٰ ملكه المدن التي كانت لهم السيطرة عليها، أصبح طريقهُ إلىٰ الشام لحباً ممهداً، وهاهم أولاء أهل حَرّان يستقبلونه مرحبين، ويسلمونه قيادهم طائعين سنة ٥٢١[1]، ومن بعدهم يخرج إليه أهل حلب ليستقبلوه مستبشرين بقدومه سنة ٥٢١[2]، وقد نبه المؤرخون لتلك الحقبة علىٰ هٰذا التحول الهام وأن تخليص الشام من ربقة الصليبيين غدا الهم الشاغل للمسلمين حكاماً ومحكومين فها هو ذا ابن الأثير يقول[3]:

«ولولا أن مَنَّ الله تعالىٰ علىٰ المسلمين بمُلك أتابك لبلاد الشام لملكتها الفرنج، لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية، وإذ علم ظهير الدين طغتكين بذٰلكَ جمع عساكره، وقصد بلادهم، وحصرها، وأغار عليها، فيضطر

---

(١) الكامل في التاريخ ١٠: ٦٤٧.
(٢) الكامل في التاريخ ١٠: ٦٥٠.
(٣) الكامل في التاريخ ١٠: ٦٥١ انظر حوادث سنة ٥٢٢ في كتب التاريخ الأخرىٰ ومنها كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ١: ٣٠ وما بعدها.

الفرنج إلىٰ الرحيل لدفعه عن بلادهم، فقدر الله تعالىٰ أنه توفي في هٰذه السنة، فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله، فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين ففعل بالفرنج ما نذكره . . ».

وما فعله هو أنه كان يهاجم حصون الفرنجة ومعاقلهم الواحد تلو الآخر، وخاصة تلك التي كانت مصدراً لغاراتهم علىٰ أملاك المسلمين، وهو في الوقت نفسه يوطد دعائم حكمه في مدن الشام واحدة تلو الأخرىٰ؛ فبعد أن ملك الموصل والجزيرة وتسلم حلب كما ذكرنا، مَلَكَ حماة سنة ٥٢٣[(١)]، وما لبث أن استخلص من الفرنج حصن الأثارب المنيع سنة ٥٢٤[(٢)]، ثم امتلك حمص سنة ٥٣٢[(٣)]، فبعلبك سنة ٥٣٣[(٤)]، وغير ذٰلكَ من الحصون والقلاع، فقوي بذٰلكَ أهل البلاد، وضعف المعتدون الغزاة، وبدأت هزائم الصليبيين تتوالىٰ . . .

وباءت محاولاتهم للسيطرة علىٰ دمشق بفشل ذريع سنة ٥٢٣[(٥)]، مع أنهم حاصروها بأعداد لا تحصىٰ، وكان المزدقاني الإسماعيلي قد كثر أتباعه وأعوانه من الباطنية في دمشق فراسل الفرنج واتفق معهم علىٰ تسليمهم إياها أثناء انشغال الناس بصلاة الجمعة في رمضان مقابل أن يسلموه مدينة صور . . إلا أن الدائرة دارت عليه وعليهم باجتماع أهل دمشق علىٰ الجهاد تحت لواء بوري بن طغتكين، «وضعفت قوىٰ الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم

---

(١) الكامل في التاريخ ١٠ : ٦٥٨.

(٢) الكامل في التاريخ ١١ : ٦٦٢ والأثارب اسم قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، وكانت القلعة خراباً أيام ياقوت، وتحت القلعة قرية تسمىٰ باسمها. معجم البلدان ١ : ٨٩.

(٣) الكامل في التاريخ ١١ : ٥٥.

(٤) الكامل في التاريخ ١١ : ٦٨ .

(٥) الكامل في التاريخ ١٠ : ٦٥٧ ـ ٦٥٨.

في حساب، وصار قصدهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع»[١].

وهكذا استعاد صاحب دمشق حصن بانياس من الفرنج سنة ٥٢٧[٢]، وكان صاحبها إسماعيل قد سلمهم إياها وذهب هو وأعوانه من الباطنية ليعيش تحت سلطتهم في ذل وهوان. واشتدت علىٰ الفرنج هجمات «أُسوار» صاحب حلب سنة ٥٢٧ أيضاً[٣]، وهزموا أمام التركمان في طرابلس في نفس السنة[٤]، ثم أمام عساكر الأتابك عماد الدين زنكي في اللاذقية سنة ٥٣٠[٥]. .

وعلىٰ يد هٰذا البطل الشهيد «حل الجزر محل المد في الحروب الصليبية» حسب تعبير مؤرخ معاصر[٦] إذ تحقق له النصر المؤزر سنة ٥٣٩[٧] باستنقاذ الرها وغيرها من بلاد الجزيرة من أيدي الفرنج، وأخذت بلاد الشام تنتظم تحت لوائه صفوفاً مجاهدة في سبيل الله، واضعة فيه آمالها بتخليص البلاد من شرور الغزاة المعتدين.

لكن شهوة الملك والتحكم كانت أحياناً تعلو علىٰ الرغبة في تحرير البلاد، فلا يتمكن المجاهد المخلص من توحيدها إلا بعد حروب عنيفة مع حكام المدن المسلمين، ومنهم حكام دمشق الذين كثرت بينهم المنازعات والاغتيالات والمؤمرات. .

---

(١) الكامل في التاريخ ١٠ : ٦٦٣.
(٢) الكامل في التاريخ ١٠ : ٦٨٤ وبانياس مدينة علىٰ الساحل السوري فيها ميناء وتشرف عليها قلعة المرقب الأثرية التي بناها المسلمون سنة ٤٥٤، ذكر ياقوت المرقب في معجم البلدان ٥ : ١٠٨ واسم البلدة فيه بُلُنياس.
(٣) الكامل في التاريخ ١٠ : ٦٨٥.
(٤) الكامل في التاريخ ١١ : ٧.
(٥) الكامل في التاريخ ١١ : ٤٠.
(٦) موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية ٥ : ٧٤٣.
(٧) الكامل في التاريخ ١١ : ٩٨.

وقتل عماد الدين غيلة وهو محاصر قلعة جَعْبَر[1] سنة ٥٤١، فتابع مسيرة الجهاد بعده ابنه العادل نور الدين محمود، وكادت دمشق تقع سنة ٥٤٣ في يد الصليبيين بعد أن استعصت عليهم وصمدت في وجههم أكثر من خمسين سنة، فقد زحفت نحوها جحافل الفرنج الذين جاؤوها من بلاد الألمان، وانضم إليهم من كان في بلاد الشام من أهل الحملات السابقة، لكن الله صرف كيدهم عنها باجتماع حكام المسلمين علىٰ الجهاد فسلمت من بطش الغزاة[2].

ثم تتالت انتصارات نور الدين، فهزم الفرنج في معركة يغرا سنة ٥٤٣[3]، وغزا أنطاكية وقتل صاحبها البرنس سنة ٥٤٤[4]، وفتح حصن أفامية في السنة التالية[5]، وتمكن من أسر فارس الروم جُوسْلين الذي كان يسيطر علىٰ الثغور إلىٰ الشمال من حلب[6]، فازداد تعلق المسلمين به، وقوي أملهم في تحقيق النصر علىٰ يديه، وأخذ الشعراء والعلماء يحثونه علىٰ تحرير القدس من أيدي الفرنجة الصليبيين، فها هوذا ابن القيسراني يصف انتصاراته ويشيد بها ثم يقول[7]:

---

(١) جَعْبَر بالفتح ثم السكون وباء موحدة مفتوحة وراء.. قلعة علىٰ الفرات بين بالس والرقة قرب صِفِّين، وكانت قديماً تسمىٰ دوس، ثم أخذها نور الدين بن زنكي، ثم انتقلت إلىٰ بني أيوب، وبقيت في يدهم إلىٰ زمن ياقوت الحموي. معجم البلدان ٢: ١٤٢. وانظر قصة اغتيال عماد الدين وبعض سيرته في الكامل ١١: ١١٠ وما بعدها.

(٢) انظر حوادث ٥٤٣ في الكامل في التاريخ ١١: ١٢٩ وما بعدها.

(٣) الكامل في التاريخ ١١: ١٣٤.

(٤) الكامل في التاريخ ١١: ١٤٤.

(٥) الكامل في التاريخ ١١: ١٤٩. وأفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص، ويسميها بعضهم فامية بغير همزة. قاله ياقوت في معجم البلدان ١: ٢٢٧، قلت: وقد دثرت بعد زمانه، ثم كشف النقاب عن آثارها في السنوات الأخيرة فغدت من المعالم السياحية جنوب شرق اللاذقية ميناء سورية الرئيس.

(٦) حوادث سنة ٥٤٦. انظر الكامل ١١: ١٥٥، والروضتين ١: ٧٢.

(٧) الكامل ١١: ١٥٥ و١٥٦ والقصيدة بتمامها في الروضتين ١: ٧٢ـ ٧٤، وابن القيسراني=

فَسِـرْ وامـلأ الـدنيـا ضيـاءً وبهجـةً فبالأفق الداجي إلىٰ ذا السَّنا فَقْرُ
كـأنّـي بهٰـذا العـزم ـ لا فُـلَّ حَـدُّه ـ وأقصاه بالأقصىٰ وقد قُضي الأمرُ
وقد أصبحَ البيت المقدَّس طاهراً وليس سوىٰ جاري الدماء له طُهْرُ

لكن نور الدين كان يعلم أن لا سبيل للوصول إلىٰ تحقيق أمل الشاعر الذي يمثل رغبة المسلمين جميعاً إلا بملك دمشق قبل ذٰلكَ، فأعمل الحيلة حتىٰ تسلمها سنة ٥٤٩ من حاكمها آنذاك مجير الدين وكانت أثناء ولايته ضعيفة تؤدي الإتاوة للفرنج وهم يدخلونها ويخرجون منها بمن يشاؤون من النصارىٰ الذين كانوا في أيدي أهلها[١].

واستقبل أهالي دمشق القائد المجاهد بفرح عامر وأمل مزدهر.. واستمر جهاد نور الدين للفرنج، فنجح في ضم قلاع الشام ومدنها إلىٰ ملكه الواحدة تلو الأخرىٰ؛ فملك حصن شَيْزَر سنة ٥٥٢[٢]، وأصلحه بعد الزلزال الذي كان قد دمره، وملك بعلبك في السنة نفسها[٣]، ثم تمكن من قلعة بانياس سنة ٥٥٩[٤]، فحصن المُنَيطرة سنة ٥٦١[٥]، وفي السنة التالية ملك

= هو محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومي الخالدي ت ٥٤٨.

(١) انظر ما نقلناه في الصفحتين ٧ و٨ من هٰذه المقدمة عن كتاب الروضتين.

(٢) الكامل في التاريخ ١١: ٢١٩.

(٣) الكامل في التاريخ ١١: ٢٢٧ وبعلبك بالفتح ثم السكون وفتح اللام والباء الموحدة والكاف المشددة كما ضبطها ووصفها ياقوت مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور علىٰ أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وقيل اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل.. فتحها أبو عبيدة بن الجراح صلحاً سنة ١٤. معجم البلدان: ١: ٤٥٣ وما بعدها. قلت: وما تزال مدينة عامرة في لبنان وآثارها القديمة باقية يقام فيها مهرجان فني كل عام، لكنه تعطل أثناء الحرب الأهلية والاجتياح الإسرائيلي ثم استؤنف العام الماضي.

(٤) الكامل في التاريخ ١١: ٣٠٤.

(٥) الكامل في التاريخ ١١: ٣٢٢ والمنيطرة كما عرفها ياقوت: مصغر بالطاء المهملة: حصن بالشام قريب من طرابلس. معجم البلدان ٥: ٢١٧.

صافيثا[١] وعُرَيمة[٢]، وفي سنة ٥٦٤ ملك قلعة جَعْبر[٣]. .

وكان في هٰذه الأثناء قد أرسل أسد الدين شيركوه ليؤلف بين مصر والشام إذ كان علىٰ يقين بأن لا نصر علىٰ الأعداء إلا بتوحيد الأهداف والقيادات، لكن مساعيه أخفقت مرتين في سنة ٥٥٩[٤] وفي سنة ٥٦٢[٥] بسبب تفضيل بعضهم لمصالحه الخاصة علىٰ المصلحة العامة، إذ تعاون الوزير المصري شاور مع الفرنجة خوفاً علىٰ سلطانه من نور الدين. . لكن العاضد خليفة مصر الفاطمي أرسل إلىٰ نور الدين يستنصره علىٰ الفرنج الذين طمعوا في ملك مصر بعد أن «جعلوا لهم في القاهرة شِحنة[٦]، وتسلموا أبوابها، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم وحكموا علىٰ المسلمين حكماً جائراً، وركبوهم بالأذىٰ العظيم»[٧] فبادر بإرسال أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤[٨].

وهكذا تحقق لنور الدين ما أراده من توحيد الجبهتين الشامية والمصرية، فأحكم الطوق علىٰ ممالك الفرنجة بينهما، وشكل سداً منيعاً يصد غزواتهم المتتالية علىٰ البلاد براً وبحراً من أوربة ولم يطل مقام شيركوه في مصر إذ توفي بعد دخولها بأشهر قليلة، فخلفه ابن أخته صلاح الدين الأيوبي[٩].

---

(١) تعرف اليوم باسم صافيتا مدينة بين حمص وحماة إلىٰ الغرب، وفيها قلعة أثرية تعد من المعالم السياحية فيها.

(٢) الكامل ١١ : ٣٢٧.

(٣) الكامل في التاريخ ١١ : ٣٣٤.

(٤) الكامل في التاريخ ١١ : ٢٩٩.

(٥) الكامل في التاريخ ١١ : ٣٢٤ـ٣٢٧.

(٦) شحنة المدينة بكسر الشين: من فيهم الكفاية لضبطها من جهة السلطان، والشحنة الرابطة من الخيل، ثم أطلقها العامة خطأ علىٰ الأمير. تاج العروس (شحن).

(٧) انظر الكامل في التاريخ ١١ : ٢٣٥.

(٨) الروضتين في أخبار الدولتين ١٥٤ وما بعدها.

(٩) الروضتين في أخبار الدولتين ١٦٠ وما بعدها.

وغدا كل شيء مهيأ للقضاء علىٰ مملكة الصليبيين في القدس وما حولها، وهب العلماء والشعراء يحثون قيادات المسلمين علىٰ القيام بهٰذه الخطوة المباركة، ويشدون من عزائمهم، ويستثيرون هممهم، وقوي أمل الجماهير في التحرر من ذل العبودية للأجنبي، لكن كثرة المؤامرات أعدمت الثقة بين السلاطين والحكام والولاة والوزراء والقواد فحالت زمناً دون تكوين جبهة قوية موحدة، ثم ما لبث الأجل أن وافىٰ نور الدين بن زنكي الذي لبىٰ نداء ربه سنة ٥٦٩ قبل ابن عساكر بسنتين بعد أن «اتسع ملكه جداً. . وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله»[١].

مضىٰ البطل الشهيد[٢] وقد مهد الطريق لمن بعده إلىٰ استنقاذ القدس من أيدي الصليبيين، وهو ما تحقق بعد علىٰ يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ.

نسأل الله تعالىٰ أن يوفق حكام المسلمين وولاة أمرهم إلىٰ الاستفادة من عبر التاريخ والسعي إلىٰ توحيد الكلمة وجمع الصفوف، فلعل القوي العزيز يحقق علىٰ أيديهم نصراً جديداً ينقذ القدس ثانية من أيدي العداة الآثمين، ويعيد لنا الكرة عليهم، ويرد لقدسنا الحبيبة وجهها المسلم العربي المشرق إنه علىٰ كل شيء قدير.

* * *

---

(١) الكامل في التاريخ ١١ : ٤٠٣.

(٢) كان يتمنىٰ أن يموت شهيداً، فتوفي بدمشق بعلة الخوانيق فلقب بالشهيد. وهو مدفون في المدرسة المسماة باسمه «المدرسة النورية».

الحروب الصليبية (١)

الحرب الصليبية الأولى ٤٩١-٤٩٢هـ / ١٠٩٧-١٠٩٩م

والحرب الصليبية الثانية ٥٤٢-٥٤٣هـ / ١١٤٧-١١٤٩م

مقياس الرسم ١: ٦٠٠٠٠٠٠

البحر الأسود

البحر المتوسط

الإمبراطورية الرومانية الشرقية

سلطنة سلاجقة الروم

الخلافة الفاطمية

الجزيرة العربية

من أطلس تاريخ الإسلام   د. حسين مؤنس   الزهراء للإعلام العربي



ب ـ المصنِّف

الشيخ الحافظ ابن عساكر علم بارز من أعلام بلاد الشام، عُرف فضله في حياته قبل مماته، وحظي بالتبجيل والإكرام في فترة اضطربت فيها أمور الناس كما بينا، لكنهم ظلوا يقدرون العلم، ويحنون هاماتهم إعظاماً للعلماء، أولئك الذين تابعوا مسيرتهم في العمل الجاد الدؤوب، مرتحلين في آفاق الأرض طلباً للعلم، وخاصة حديث رسول الله ﷺ، ساعين إلىٰ إحياء سنته، والوقوف في وجه البدع والمذاهب المنحرفة، عاكفين علىٰ البحث والتصنيف، مشجعين علىٰ جهاد الأعداء، ساعين إلىٰ إعلاء كلمة الحق. . وابن عساكر هو الأنموذج الفذ الذي نجد في شخصه كل هٰذا الذي ذكرناه.

١ ـ مصادر ترجمته:

وصلتنا ترجمته في كتب كثيرة؛ منها ما كتبه أنداده ومعاصروه، ومنها ما كتبه ولده وتلامذته، ومنها كتب تراجم الأعيان والنبلاء عامة، فلا بد له فيها من حيز يذكر فيه بالتكريم والتعظيم.والمصادر الأساسية لمعلوماتنا عنه ترجمة ولده القاسم، فقد كتب جزءاً في الكلام علىٰ سيرة أبيه وصلنا معظم ما فيه عن طريق المراجع الأخرىٰ التي نقلته، وكذٰلكَ ما قاله فيه معاصروه ونقل عنهم، ومنهم عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعد السمعاني (٥٠٦ ـ ٥٦٢) صديقه ورفيقه في الرحلة طلباً للحديث، فقد ترجمه في تاريخه «الذيل علىٰ تاريخ بغداد»[١]، ولم تصلنا هٰذه الترجمة إلا في الكتب التي نقلت عنه، كما

---

(١) انظر طبقات الشافعية للسبكي ٧: ٢١٨.

ذكره في مواضع كثيرة من معجم شيوخه (التحبير) حيث ينقل أخبار رحلتهما والشيوخ الذين سمعا منهم.

ومن أقدم ما وصلنا من ترجماته ما كتبه عنه معاصره الآخر مستوطن الشام وكاتب ديوان الإنشاء لنور الدين وصلاح الدين: محمد بن محمد بن حامد عماد الدين الأصبهاني الكاتب (ت ٥٩٧) وذٰلكَ في كتابه خريدة القصر وجريدة العصر، وتشغل الترجمة الصفحات من ٢٧٤ إلىٰ ٢٨٠ من قسم شعراء الشام الجزء الأول، طبعة دمشق ١٩٥٥م.

أما معاصره الثالث عبد الرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي من أهالي بغداد (ت ٥٩٧) فلم يجد بداً من ترجمته فذكره بعدة أسطر فقط في كتابه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم الجزء العاشر، صفحة ٢٦١ من طبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٨هـ، والظاهر أنه كان له حاسداً يضيق ذرعاً بشهرته وباحترام الناس له وبحماسته للمذهب الشافعي ودفاعه الحار عن الأشاعرة[1] بينما ابن الجوزي كان من أنصار المذهب الحنبلي المتشددين، فظهر نفوره منه في ضآلة ما ذكره عنه حتىٰ أن بعض من قرأ أصل المنتظم كتب في هامشه ما لفظه: «انظر إلىٰ قلة الإنصاف؛ يذكر هٰذا الرجل بهٰذه الترجمة، ولم يخرج من دمشق أحفظ منه، ويقول: كانت له به معرفة [أي بعلم الحديث] وهو أحفظ من مصنف هٰذا الكتاب، وما أظن مصنفه رأىٰ مثله»[2].

ثم كتب عنه ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦) إذ عده من الأدباء، فخصص لترجمته حيزاً كبيراً من كتابه الذي سماه «إرشاد الأديب إلىٰ

---

(١) قال ابن الجوزي في ترجمة ابن عساكر: «وكان شديد التعصب لأبي الحسن الأشعري حتىٰ صنف كتاباً سماه «كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري»، وقد طبع بعنوان «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ أبي الحسن الأشعري» بتحقيق حسام الدين القدسي، دمشق ١٣٤٧هـ.

(٢) المنتظم ١٠: ٢٦١.

معرفة الأديب» ثم اشتهر بمعجم الأدباء، وتشغل الترجمة الصفحات من ٧٣ إلىٰ ٨٧ من الجزء ١٣ من طبعة دار المأمون بالقاهرة ١٩٣٦، وفي هٰذه الترجمة قدم لنا ياقوت معلومات كثيرة هامة نقلها من الجزء الذي عمله القاسم ابن المصنف الحافظ في أخبار والده، كما حفظ لنا ياقوت أيضاً قصيدة طويلة قالها في رثاء الحافظ ابن عساكر تلميذه الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري الحموي الذي مات شهيداً في واقعة مرج عكا سنة ٥٨٥هـ، وشغلت هٰذه القصيدة الصفحات من ٤٨ إلىٰ ٥٥ من الجزء العاشر من معجم الأدباء المذكور.

وممن ترجمه أيضاً يوسف بن قزأغلي سبطُ معاصرِه ابنِ الجوزي (ت ٦٥٤) في كتابه مرآة الزمان في حوادث سنة ٥٧١ ـ وما يزال الكتاب مخطوطاً وفي خزانة مجمع دمشق صورة عنه هي من مراجع بحثنا ـ فنفىٰ عن جده أن يكون قد تنقص الحافظ ابن عساكر إذ قال: «وذكره جدي وأثنىٰ عليه في المنتظم» لكنه لم يجد بداً من إضافة تفصيلات كثيرة تبين فضل الرجل ومكانته.

وترجمه محمد بن محمود بن محمد المؤيد الخوارزمي (ت ٦٦٥) في كتابه جامع مسانيد الإمام الأعظم والهمام الأفخم الأعلم أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي في الصفحة ٥٣٩ من الجزء الثاني من طبعة مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في حيدر آباد سنة ١٣٣٢هـ، مع أن ابن عساكر كان كما ذكرنا من أعلام المذهب الشافعي المتحمسين له.

وذكره عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥) في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين في الجزء ١ في الصفحة ١٠ والصفحة ٢٦١ مِن طبعة القاهرة ١٢٨٧هـ، وعرض لذكره أيضاً وذكر بعض مؤلفاته في كلامه علىٰ ولده القاسم في الذيل علىٰ أخبار الدولتين في الصفحة ٤٧ حسب طبعة ١٩٤٧م.

وترجمه أحمد بن محمد بن أبي بكر شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١) في

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان في الصفحات ٣٠٩ و٣١٠ و٣١١ من الجزء الثالث بتحقيق الدكتور إحسان عباس، مطبعة دار المعرفة، بيروت.

وأما محمد بن أحمد شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨) فقد نقل لنا ترجمته من خط ولده القاسم وزاد عليها بعض ما قاله غيره في مصادر لم تصلنا، وفي مصادر وصلتنا، جمعه كله في كتابه سير أعلام النبلاء فشغل الصفحات من ٥٥٤ إلىٰ ٥٧١ من الجزء العشرين (الترجمة رقم ٣٥٤ طبعة مؤسسة الرسالة، بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم عرقسوسي)، وزودنا بمعلومات أخرىٰ عنه في كتابه الآخر تذكرة الحفاظ في الصفحات ١٣٢٨ إلىٰ ١٣٣٤ من الجزء الرابع من طبعة حيدر آباد عام ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م. ولم يخل كتاب للذهبي من ذكر الحافظ ابن عساكر، فقد ذكره أيضاً في كتابه «العبر في خبر من عبر» في الصفحة ٢١٢ من الجزء الرابع حسب طبعة الكويت ١٩٦٣م، وفي الإعلام بوفيات الأعلام وغيرها من مؤلفات الذهبي كما أنه ذكره في ترجمة ولده القاسم وفي ترجمة حفيده ولد القاسم..

وممن ترجم للحافظ ابن عساكر عمر بن المظفر، ابن الوردي (ت ٩٤٩) في الصفحة ٨٧ من الجزء الثاني من كتابه تتمة المختصر في أخبار البشر طبعة المطبعة الوهبية ١٢٨٥هـ.

وخليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤) في كتابه الوافي بالوفيات، (المخطوط ١٩ : ق ١٨٤/أ ـ ١٨٨/أ).

وعبد الله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨) في مرآة الجنان وعبرة اليقظان في الصفحات من ٣٩٣ إلىٰ ٣٩٦ من الجزء الثالث حسب طبعة دائرة المعارف النظامية ١٣٣٨هـ.

وعبد الوهاب بن علي تاج الدين السبكي (ت ٧٧١) في طبقات الشافعية الكبرىٰ في الصفحات من ٢١٥ إلىٰ ٢٢٣ من الجزء السابع من الطبعة التي حققها الطناحي والحلو.

وعبد الرحيم بن الحسن جمال الدين الإسنوي (ت ٧٧٢) في طبقات الشافعية في الصفحتين ٢١٦ و٢١٧ من الجزء الثاني طبعة مطبعة الإرشاد، بغداد ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

وإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤) في البداية والنهاية في التاريخ، في الجزء ١٢ صفحة ٢٩٤ من طبعة مطبعة السعادة بمصر.

ويوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤) في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، في الصفحة ٧٧ من الجزء السادس حسب الطبعة المصورة بوزارة الثقافة بمصر.

وعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١) في طبقات الحفاظ في الصفحتين ٤٧٤ و٤٧٥ من طبعة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

وعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧) في الدارس في تاريخ المدارس في الصفحتين ١٠٠ و١٠١ من الجزء الأول طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق مطبعة الترقي ١٩٤٨م.

وأحمد بن مصطفىٰ المعروف بطاش كبري زاده (ت ٩٦٢) في مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ج٢: علم الفقه ص٢١١.

والقاضي محمود العدوي (ت ١٠٣٢هـ) في كتاب الزيارات بدمشق ص٧٣ من طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٦م.

ومصطفىٰ بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي (ت ١٠٦٧هـ) في كتابه كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون في الصفحات ٥٤ و٥٧ و١٠٣ و١٦٢ و٢٩٤ و٣٤٠ و٣٤٢ و٥٢٦ و٥٧٤ و٩٧٤ و١٧٣٦ و١٧٣٧ و١٨٣٦ طبعة استانبول.

وعبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) في شذرات الذهب في أخبار من ذهب في الصفحتين ٢٣٩ و٢٤٠ من الجزء الرابع حسب طبعة مطبعة القدسي سنة ١٣٥٠هـ.

وصديق بن حسن بن علي القنوجي (١٣٠٧) في أبجد العلوم ٢ : ٣٧٥، و٣: ٧٩٠ ـ ٧٩١ ط. الهند ١٢٩٦.

وإسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩) في هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ج١ : ٧٠١ ـ ٧٠٢ (ط. استانبول ١٩٥١م)، وفي كتابه الآخر إيضاح المكنون في الذيل علىٰ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج١ : ٢٢٤ (ط. استانبول ١٩٤٥م).

أما المراجع الحديثة فلا يكاد كتاب من كتب التراجم أو الموسوعات يخلو من ذكره والترجمة له، فإن خلا من ذٰلكَ فهو قاصر في موضوعه.

كما نجد كتباً كاملة خصصت للكلام عليه مثل: ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية[1]..

وكتاب ابن عساكر في ذكرىٰ مرور تسعمائة سنة علىٰ ولادته (٤٩٩ ـ ١٣٩٩هـ) الذي صدر بمناسبة مهرجان ابن عساكر المعقود بدمشق في الفترة من ٢٦ إلىٰ ٢٨/ ٥/ ١٣٩٩هـ الموافقة ٢٣ ـ ٢٥/ ٤/ ١٩٧٩م برعاية المجلس الأعلىٰ لرعاية العلوم والفنون والآداب الاجتماعية التابع لوزارة التعليم العالي في الجمهورية العربية السورية.

وكل من ذكر ابن عساكر من القدماء والمحدثين أثنىٰ عليه أعظم الثناء، وأغدق له المديح، وأبرز بعض جوانب علمه وشخصيته الفذة.

٢ـ اسمه ونسبه وألقابه:

هو علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، أبو القاسم ثقة الدين الدمشقي الشافعي.

---

(١) تأليف أحمد عبد الكريم حلواني، ط. دار الفداء للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩١م.

اشتهر بابن عساكر، وأول مرجع نجد فيه هٰذه الشهرة هو كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لمعاصره ابن الجوزي إذ سماه بقوله «علي بن هبة الله أبو القاسم الدمشقي المعروف بابن عساكر»(١) لكن هٰذه الشهرة التي يزعمها لا وجود لها في أي نسخة من كتبه التي كتبت في عصره ولا في سماعات الكتب التي قرئت عليه، ولا في السماعات علىٰ أخيه ولا في كلام معاصريه وأصدقائه كأبي المظفر السمعاني والعماد الأصفهاني(٢)، أما ابن الجوزي فقد كان يميل إلىٰ تنقصه كما بينا، ثم ذكرت هٰذه الشهرة في معجم الأدباء إذ قال ياقوت: «وكان الحافظ أبو القاسم بن عساكر يقول شعراً ليس بالقوي. . .»(٣)، وبعده قال سبط ابن الجوزي: «وليس هٰذا الاسم في نسبه من قبل الأب، ولعله من قبل الأم»(٤)، ثم قال الذهبي: «وعساكر لا أدري لقب من هو من أجداده، أو لعله اسم لأحدهم»(٥)، وقال في ترجمة القاسم: «وما علمت هٰذا الاسم في أجداده ولا من لقب به منهم»(٦)، وقال السبكي: «ولا نعلم أحداً من جدوده يسمىٰ عساكر، وإنما هو اشتهر بذٰلكَ»(٧). . . وكائناً ما كان أمر هٰذه الشهرة فقد شاعت وانتشرت حتىٰ غدت علماً علىٰ حافظ دمشق وعلىٰ أسرته لا تذكر إلا في معرض الاحترام والتعظيم، كالذي نجده في شعر فتيان بن علي الأسدي الدمشقي الشاغوري شاعر دمشق زمن الحافظ:

---

(١) المنتظم ١٠ : ٢٦١.

(٢) انظر تحقيقاً وافياً لهٰذه الشهرة في مقدمة الدكتور صلاح الدين المنجد للمجلدة الأولىٰ من تاريخ مدينة دمشق، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥١م.

(٣) معجم الأدباء ١٣ : ٨٦.

(٤) مرآة الزمان ٨ : ١٠٧ في حوادث سنة ٥٧١.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٥٥.

(٦) سير أعلام النبلاء ٢١ : ٤٠٥.

(٧) طبقات الشافعية الكبرىٰ ٧ : ٢١٥.

لكـــم يـــا بنـــي عســـاكـــر بيـــت ســـامـــق فـــي دار ٱلعلـــى وٱلعـــلاء
لـــم يـــزل منجبـــاً أبـــوكـــم فمـــا بُشِّـــر إلا بـــٱلســـادة ٱلنجبـــاء
ولكـــم فـــي ٱلأنـــام صيـــت رفيـــع مشـــرف فـــوق قمـــة ٱلجـــوزاء[١]

أما ألقابه الأخرىٰ فكلها تؤكد شدة تعظيم الناس له في زمانه ورفعة منزلته التي تبوأها عبر التاريخ، ومنها ما ذكره الذهبي في ترجمته إذ قال: «الإمام العلامة الحافظ الكبير المجوِّد محدث الشام ثقة الدين أبو القاسم الدمشقي الشافعي صاحب تاريخ دمشق..»[٢] و«فخر الأئمة»[٣] وما جاء في كلام اليافعي إذ ترجمه بقوله «الإمام المحدث البارع الحافظ المتقن الضابط ذو العلم الواسع شيخ الإسلام ومحدث الشام ناصر السنة قامع البدعة زين الحفاظ بحر العلوم الزاخر، رئيس المحدثين المقر له بالتقدم العارف الماهر ثقة الدين أبو القاسم...»[٤]، ومنها عند السبكي: «الإمام الجليل حافظ الأمة.. الشيخ الإمام ناصر السنة وخادمها، وقامع جند الشيطان بعساكر اجتهاده وهادمها، إمام أهل الحديث في زمانه، وختام الجهابذة الحفاظ.. الواحد الذي أجمعت الأمة عليه، والواصل إلىٰ ما لم تطمح الآمال إليه، والبحر الذي لا ساحل له، والحبر الذي حمل أعباء الأمة كاهله.. وقال فيه الشيخ محي الدين النووي ومن خطه نقلت: وهو حافظ الشام بل هو حافظ الدنيا الإمام مطلقاً الثقة الثبت»[٥].

وكثير مما سبق صفات يخلعها عليه المعجبون به لكن بعضها اشتهر حتىٰ غدا علماً عليه وهي الصفات التي تدل علىٰ سعة علمه وحماسته في الحفاظ

(١) خريدة القصر ١ : ٢٨٠ وديوان فتيان الشاغوري ٦١٤. وقد أطلق اسم ابن عساكر علماً علىٰ حي من أحياء دمشق.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٥٤.
(٣) تذكرة الحفاظ ٤ : ١٣٢٨.
(٤) مرآة الجنان ٣ : ٣٩٣.
(٥) طبقات الشافعية الكبرىٰ ٧: ٢١٥ و٢١٩.

علىٰ السنة الشريفة فقد لقب بالحافظ الثقة، وما أصدقه من لقب، ولقب بناصر السنة، وجمال السنة، ومحدث الشام، وشيخ الإسلام . . وغير ذٰلكَ كثير.

٣ـ مولده وأسرته:

ولد الحافظ ابن عساكر في أول المحرم من سنة ٤٩٩ هـ حسب المنقول عن ابنه[١]، أو في العشر الأخير منه حسب المنقول عن السمعاني[٢]، ونبت في بيت علم وحديث وقضاء وفقه وجاه، بيت معمور بالأئمة، كل من فيه عالم أو متعلم، بيت كان أُلأَفه أعيان دمشق من العلماء والقضاة، فما رأت عين الطفل الناشىء فيه، ولا سمعت أذنه غير العلم والعلماء.

فأبوه الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، أبو محمد بن أبي الحسن المُزَكِّي كان من أهل العلم، وقد ترجم له ابنه الحافظ في تاريخ دمشق[٣]، فذكر أنه ولد سنة ٤٦٠ وأنه كان حريصاً علىٰ طلب العلم وصحبة العلماء، فقد صحب الفقيه نصر بن إبراهيم أبا الفتح المقدسي[٤]، وسمع منه صحيح

---

(١) جاء في سير أعلام النبلاء ٢ : ٥٥٤ قول مصنفه: «نقلت ترجمته من خط ولده المحدث أبي محمد القاسم بن علي فقال: ولد في المحرم في أول الشهر سنة تسع وتسعين وأربعمائة». وقبله نقل ياقوت من تلك الترجمة فاكتفىٰ بذكر الشهر والسنة.

(٢) جاء في خريدة القصر قسم شعراء الشام ١ : ٢٧٤ نقلاً عن السمعاني: «وسألته عن مولده فقال: في العشر الأخير من محرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وفي تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: تاريخ مولد ابن عساكر في ١ رجب عام ٤٩٩ هـ الموافق للتاسع من شهر آذار ١١٠٦ م.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٤ : ٣٢٢ النسخة السليمانية، وانظر مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٧ : ٨٥، وتهذيب التاريخ لبدران ٤ : ٢٨٣.

(٤) شيخ الشافعية بالشام، سمع منه أبو بكر الخطيب صاحب تاريخ بغداد، وتوفي سنة ٤٩٠، وشاهدة قبره محفوظة بمتحف دمشق. طبقات السبكي ٥ : ٣٥١، وتبيين كذب المفتري ٢٨٦، والعبر ٣ : ٣٢٩، ومرآة الجنان ٣ : ١٥٢، والنجوم الزاهرة ٥ : ١٦٠ وشذرات الذهب ٣ : ٣٩٥.

البخاري، واستجيز له من جماعة من شيوخ العراق، وتوفي سنة ٥١٩.

قال الحافظ: «سمعت منه شيئاً يسيراً» ثم روىٰ بعض ما سمعه منه بإسناده إلىٰ البخاري صاحب الصحيح، وذكره في معجم شيوخه وروىٰ عنه حديثاً غريباً ثم قال: «وقد سمعت من أبي رحمه الله جزءاً من صحيح البخاري عن الفقيه نصر، عن ابن السمسار، وكان عندي، ففقدته سنة سبع وخمسين»[١].

وأخوه هبة الله بن الحسن، أبو الحسين صائن الدين المولود سنة ٤٨٨ كان إماماً فقيهاً محدِّثاً، تلا بالروايات علىٰ أبي الوحش سبيع صاحب الأهوازي، وعلىٰ مصنف المقنع في القراءات أحمد بن خلف الأندلسي، وقرأ الأصول والنحو، وسمع شيوخ عصره، ورحل في طلب العلم، وحدث بطبقات ابن سعد، وأعاد بالأمينية[٢] لشيخه أبي الحسن السلمي، ودرَّس بالغزالية[٣]، وأفتىٰ، وصنف، وكان ديناً ورعاً عرضت عليه خطابة دمشق فامتنع، واجتهد به خاله أبو المعالي أن ينيبه عنه في الحكم فأبىٰ إذ كان فيه إعراض عن المناصب وزهد فيها. توفي سنة ٥٦٣.

وقد سَمَّع أخاه الحافظ الكبير وهو ما يزال في السادسة من عمره، ثم روىٰ عنه أخوه الحافظ وابنه القاسم، وبنو أخيه محمد: زين الأمناء وتاج الأمناء وفخر الدين وأبو نصر، وروىٰ عنه أبو سعد السمعاني، وله شعر كثير[٤].

---

(١) انظر الرواية رقم ٣١٦.

(٢) يقال إنها أول مدرسة بنيت للشافعية بدمشق قرب جامعها جهة الباب القبلي (باب القوافين) بناها أمين الدولة أتابك العساكر بدمشق، وهي الآن في سوق الحرير قد رُمِّمت وحُوِّلت إلىٰ مدرسة خاصة. الدارس ١ : ١٧٧ وما بعدها.

(٣) تقع في الزاوية الشمالية الغربية من جامع دمشق الأموي وتنسب إلىٰ الإمام الغزالي الذي اعتكف في تلك الزاوية عند دخوله دمشق إلىٰ أن عرفه الصوفية فيها فنقلوه منها إلىٰ الخانقاه السميساطية. الدارس ١ : ٤١٣ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ١ : ٢٨١، ووفيات الأعيان ٣ : ٣١١، والعبر ٤ : ١٨٤، وسير أعلام االنبلاء ٢٠ : ٤٩٥، وفوات الوفيات ٤ : ٢٣٥، =

وأخوه الآخر محمد كان قاضياً لم تحدثنا عنه المراجع بالكثير، لكنها حفلت بالكلام علىٰ أولاده وأحفاده فقد عرف منهم كثير من الأئمة والشيوخ[1].

وأخته كانت زوجاً لمحمد بن علي بن محمد بن الفتح السلمي، وآل السلمي أهل علم وأصحاب وجاهة.. فاشتهر من أولادهما عالمان: الأول هو الحسن أبو طالب وهو ممن قرأ التاريخ علىٰ خاله المصنف[2]، والثاني شرف الدين، وكان مدرس الأمينية، وقد سمع علىٰ خاليه الصائن وأبي القاسم[3].

ولم يكن أقارب الشيخ من جهة أمه أقل شأناً، فهم أهل بيت قرشي ينتهي نسبهم إلىٰ بني أمية ومنهم قضاة دمشق لمدة طويلة:

فَجدُّ المصنف لأمه يحيىٰ بن علي بن عبد العزيز، أبو المفضل[4] بن أبي الحسين بن أبي محمد، زكي الدين القاضي المعروف بابن الصائغ من قضاة دمشق، ولد سنة ٤٤٣، وتفقه بدمشق علىٰ القاضي المروزي، وصحب الفقيه نصراً المقدسي وسمع منه، وسمع الكتاني، ورأىٰ الخطيب البغدادي ولم يسمع منه، ورحل إلىٰ بغداد في طلب الحديث فسمع كبار شيوخها، وكان ثقة حلو المحاضرة، عالماً بالعربية فصيحاً، انتفع سبطه المصنف بصحبته في علم النحو

= وطبقات السبكي ٧: ٣٢٤، وطبقات الإسنوي ٢: ٢١٥، والنجوم الزاهرة ٥: ٣٨٠، والدارس في تاريخ المدارس ١: ٨٤، وشذرات الذهب ٤: ٢١٠.

(١) انظر كلام السبكي علىٰ ولده أحمد وأحفاده منه، في الطبقات ٧: ٧١ وحواشيها.

(٢) تاريخ دمشق، المجلدة الأولىٰ ص٦٣٥.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس ١: ١٨٢.

(٤) كنيته في معجم الأدباء (١٣: ٧٦) وطبقات السبكي (٧: ٧١)، وشذرات الذهب (٤: ١٠٥) هي أبو الفضل، وقد صُحِّف اسمه في ترجمة سبطه المصنف في سير أعلام النبلاء (٢٠: ٥٥٨) فجُعل «عيسىٰ» وعُدَّ «يحيىٰ» تصحيفاً، مع أن ترجمته قد وردت في الجزء نفسه باسم يحيىٰ، وجاء فيها: «قال سبطه حافظ الشام أبو القاسم: قال لي: إنه ولد سنة ٤٤٣..»!.

والعروض، وروىٰ عنه، توفي القاضي الزكي سنة ٥٤٣هـ. وقد ترجمه كثيرون[١]، وأولهم سبطه الحافظ الكبير في تاريخ دمشق، وروىٰ عنه في مواضع كثيرة منه[٢]، وربما يكون قد ذكره أيضاً في معجم شيوخه لكن روايته لم تصلنا فيه بسبب الخرم الذي أصاب النسخة الوحيدة الباقية وهي تنتهي بذكر من اسمه ياقوت.

وخاله الأكبر محمد بن يحيىٰ أبو المعالي مُنْتَجَب الدين ـ ويعرف أيضاً بالصائغ ـ المولود سنة ٤٦٧ كان ينوب عن أبيه في قضاء دمشق، وقد أخذ العلم والفقه عن كبار الشيوخ كنصر المقدسي شيخ أبيه وغيره، ورحل في طلب الحديث إلىٰ بغداد ومصر، وكان نزهاً عفيفاً صليباً في الحكم محمود السيرة.. توفي سنة ٥٣٧ روىٰ عنه ابن أخته الحافظ الكبير في معجم الشيوخ، وترجم له كثيرون[٣].

وخاله الأصغر سلطان بن يحيىٰ أبو المكارم القرشي المعدل، ناب أيضاً عن أبيه في قضاء دمشق، وقرأ القرآن بأحرف منها حرف أبي عامر الدمشقي، وسمع الحديث بدمشق، ورحل في طلبه إلىٰ العراق وأصبهان، وكان حسن الصوت

---

(١) انظر تاريخ مدينة دمشق ١٨ : ٨٦ (نسخة سليمان باشا)، والتحبير ٢ : ٣٨٤، والكامل في التاريخ ١١ : ٧٧، ومرآة الزمان ٨ : ٥٤ (مصورة)، وسير أعلام النبلاء ٢٠ : ٦٣، والعبر ٤ : ٩٣، وطبقات السبكي ٧ : ٣٣٤، وطبقات الإسنوي ٢ : ١٤١، والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٦٦، وشذرات الذهب ٤ : ١٠٥، ومختصر تاريخ دمشق ٢٧ : ٢٨٥.

(٢) انظر مثلاً: (عاصم ـ عايذ) ص١٣٤، وترجمه عمر بن الخطاب ص٣٦٧، والمجلد ٤٢ : ١٨١، ٢٨٧، ٣٥٠، والمجلد ٤٤ : ٩، والمجلد ٥٤ : ٢٤٤ وغيرها كثير.

(٣) انظر الرواية رقم ١٩٦، ومراجع ترجمته: التحبير ٢ : ٢٥٠، والعبر ٤ : ١٠٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠ : ١٣٧، وطبقات الإسنوي ٢ : ١٤٢، وقضاة دمشق ٤٥، والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٢، ومختصر تاريخ دمشق ٢٣ : ٣٣٧، وقد وقع في أصول التاريخ خرم ذهب بهٰذه الترجمة وحفظها لنا المختصر والمراجع الأخرىٰ، وشذرات الذهب ٤ : ١١٦.

يتعانىٰ الوعظ، خطب يوم الجمعة ببصرىٰ[1]، وخطب بالرحبة، وأعجب الناس بوعظه في العراق والشام، فحين أتىٰ دمشق أبو بكر الشهرزوري رسولاً من الخليفة قال: قد اشتقت إلىٰ سماع وعظ القاضي أبي المكارم لأني قد سمعته بالعراق، وسأله إياه[2] حتىٰ أجاب لأنه كان قد تركه مدة، فجلس للوعظ في المسجد الجامع، وكان مجلساً موصوفاً حضره ابن أخته الحافظ الكبير وكان آخر مجالسه. توفي القاضي أبو المكارم سنة ٥٣٠، وقد ترجم له ابن أخته الحافظ وروىٰ عنه في تاريخ دمشق وفي معجم الشيوخ، وذكره آخرون[3].

فالشيخ الحافظ ابن بيئة حافلة بالعلماء وذوي الشأن، وحق لأبي شامة أن يقول فيهم «وهٰذا البيت بيت جليل من الدمشقين كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء، جمع هٰذا البيت رياسة الدين والدنيا»[4] لكنه ظل نجمها اللامع وعلمها الشامخ الذي استمرت بسببه وبسبب مؤلفاته سلسلة علمائها ردحاً من الزمن ويكفي أن نذكر منهم ابنه الأكبر:

القاسم أبا محمد الإمام المحدث الحافظ العالم الرئيس الذي ولد سنة ٥٢٧ وأجاز له كثير من شيوخ أبيه، وسمع من خلق كثيرين، ولكن أكثر ما سمعه كان من أبيه الحافظ، ولذا قال فيه الذهبي: «ما علمت أحداً سمع من أبيه أكثر من

---

(١) بُصرىٰ بالضم والقصر قصبة كورة حَوْران، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، فتحت صلحاً سنة ١٣ هـ. قاله ياقوت في معجم البلدان ١ : ٤٤١. قلت: وما زالت بلدة عامرة جنوب سورية وبقربها آثار رومانية ومرافق سياحية أشهرها المسرح الروماني.

(٢) في المراجع «وسأل أباه» وقد رأيت أن المعنىٰ لا يتوجه بها.

(٣) من مراجع ترجمته: تاريخ مدينة دمشق ٧: ١٩٣/ ب (نسخة سليمان باشا)، والعبر ٤ : ٨٢، وقضاة دمشق ٤٥، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٠ : ٢٧، وتهذيب تاريخ دمشق ٦ : ١٨٧.

(٤) ذيل الروضتين ص ١٣٦ في أثناء ترجمة الفخر بن عساكر الذي سيلي كلامنا عليه.

هٰذا الابن، ولا ابن الإمام أحمد، لعل القاسم سمع من أبيه ثلاثة آلاف جزء!. . وهو أوسع رواية وسماعاً من أبي الفرج بن الجوزي. . وكل منهما لم يرحل، بل قنع أبو محمد ببلده ووالده، وناهيك بذٰلكَ!. . » ثم ذكر بعد ذٰلكَ أنه سمع بمكة ومصر والحجاز وبيت المقدس، وولي بعد أبيه مشيخة النورية ومما قاله عنه ولده علي[1]: «ولولا تبييضه لكتاب التاريخ ونقله من المسودة لما قدر الشيخ الكبير ـ يعني والده ـ علىٰ إتقانه، ولا جوّده، فإنه حين فرغ من تسويده، عجز عن نقله وتجديده، وضبطِ ما فيه من المشكل وتحديده، كأنَّ نظرَه قد كلّ، وبصرَه قد قلّ، فلم يزل والدي يكتب، وينقله من الأوراق الصغار والظهور، ويهذب، إلىٰ أن نجز منه نحو مئة وخمسين جزءاً، وكان بينهما نفرةٌ، فكان لا يحضرُ السماعَ تلكَ المدة، فحكىٰ لي والدي قالَ: ضاق صدري فأتيتُ الوالدَ ليلةَ النصف في المنارة الشرقية، وزال ما في قلبه. وسمع[2] أبا جعفر القرطبي كثيراً يقول[3] عند غيبة والدك عنه: جزاه الله عني خيراً، فلولاه ما تم التاريخ. هٰذا أو معناه».

قال الذهبي: «يقال إن الحافظ أبا القاسم حلف أنه لا يكلم ابنه حتىٰ يكتب التاريخ، فكتبه. . ».

توفي القاسم سنة ٦٠٠[4].

---

(١) كتب علي بن القاسم ترجمة لوالده، نقل منها ابن نقطة في التقييد، والذهبي في السير عن ابن رافع.

(٢) كذا وردت العبارة في السير، والأشبه أن تكون «وسمّعه أبو جعفر» أو: سمعت أبا جعفر القرطبي يقول: وسمعته كثيراً.

(٣) في سير أعلام النبلاء ٢١ : ٤١٠ «وسمعت أبا جعفر. . » ولا تستقيم به العبارة.

(٤) ترجمته في تكملة المنذري: الترجمة ٧٦٧، وذيل الروضتين لأبي شامة ٤٧، والوفيات ٣: ٣١١ (في ترجمة أبيه)، والبداية والنهاية ١٣ : ٣٨، والنجوم الزاهرة ٦ : ١٨٦، وسير أعلام النبلاء ٢١: ٤٠٥، ودول الإسلام ٢: ٨٠، وتذكرة الحفاظ ٤ : ١٣٦٨، والعبر ٤ : ٣١٤، وطبقات السبكي ٨: ٣٥٢، والشذرات ٤: ٣٤٧، .

وابنه الآخر الحسن ممن قرؤوا عليه التاريخ، وحفيداه علي ومحمد ابنا القاسم كانوا من أهل الحديث، ومحمد أحد الذين قرؤوا عليه التاريخ.

وأولاد أخيه محمد أيضاً قرؤوا عليه مصنفاته وأقرؤوها، وأبرزهم فقيه الشام عبد الرحمن بن محمد، فخر الدين أبو منصور المولود سنة ٥٥٠ أو ٥٥٥ شيخ الشافعية بالشام، وآخر من جمع له العلم والعمل كما يقول السبكي، تفقه بدمشق علىٰ الشيخ قطب الدين النيسابوري، وتزوج بابنته، وسمع من عميه: الحافظ الكبير أبي القاسم، والصائن هبة الله، وغيرهم روىٰ، وروي عنه، وله تصانيف، وأريد علىٰ القضاء، فاستعفىٰ، وكان شديد الزهد في المناصب، لا تأخذه في الحق لومة لائم، فقد أنكر علىٰ الملك المعظم تضمين المكوس والخمور، فوقع بينهما.. درس بالمدرسة العَذْراوية[1] والتقوية[2] والجاروخية[3] بدمشق، والصلاحية بالقدس، يقيم بالقدس أشهراً، وبدمشق أشهراً. وكانت وفاته سنة ٦٢٠ مصيبة عامة بالشام، وجنازته مشهودة قل أن وجد مثلها[4].

---

(١) المدرسة العذراوية أنشأتها الست عذراء بنت أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس سنة ٥٨٠ وتقع بحارة الغرباء داخل باب النصر المسمىٰ الآن بباب دار السعادة (الدارس ١ : ٣٧٣).

(٢) المدرسة التقوية من أجل مدارس دمشق داخل باب الفراديس شمالي الجامع شرقي الظاهرية بناها سنة ٥٧٤ الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وهي تقع اليوم في منتصف جادة السبع طوالع وقد درست وحولت إلىٰ دار سكن (الدارس ١ : ٢١٦، ومخطط المنجد رقم ٣٩).

(٣) المدرسة الجاروخية: تقع داخل بابي الفرج والفراديس شمالي الجامع الأموي، قال ابن شداد إن بانيها جاروخ التركماني، وقال غيره بنتها إحدىٰ بنات الملوك، وهي الآن في جادة السبع طوالع، درست وحولت لدار سكن، (الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٢٢٥، ومخطط المنجد رقم ١٠).

(٤) الكامل في التاريخ ١٢ : ١٧٢، ومرآة الزمان ٨ : ٦٣٠ (مخطوطة)، وتكملة المنذري ٣ (الترجمة ١٩٣٥) وذيل الروضتين لأبي شامة ١٣٦، ووفيات الأعيان ٣: ١٣٥، =

واشتهر من أولاد محمد أيضاً أحمد بن محمد أبو الفضل تاج الأمناء الذي ولد سنة ٥٤٢؛ سمع من عمه الحافظ الكبير ومن الفقيه أبي الحسن وغيرهما، وحدث، وكان كثير الديانة، يحضر الغزوات، معظماً محترماً، وصنف في فضل القدس، وكان عالماً جليلاً ولي مناصب كباراً، توفي سنة ٦١٠ هـ[١].

والحسن بن محمد أبو البركات زين الأمناء الذي ولد سنة ٥٤٤؛ روىٰ عن عميه الصائن وأبي القاسم، وكان شيخاً جليلاً نبيلاً عابداً كيس المحاضرة، ولي نظر الخزانة ونظر الأوقاف ولقب بالسجاد لكثرة صلاته، توفي سنة ٦٢٧ هـ[٢].

واستمرت سلسلة العلم والرواية والتدريس وتولي المناصب الهامة والوجاهة كما لم تستمر في أسرة أخرىٰ، وهٰذا تاج الدين السبكي يترجم لعدد كبير منهم في طبقات الشافعية ثم يقول: «وخلق يطول عددهم، ومن النساء جماعة يسئم ذكرهن. وقد جمع بعضهم كتاباً في ذكر بني عساكر»[٣].

ويهمنا من أبناء هٰذه الأسرة ابنا زين الأمناء عبد الوهاب أبو الحسن، وعبد اللطيف أبو علي ابنا أبي البركات زين الأمناء فهما قد سمعا معجم الشيوخ الذي نحن بصدد تحقيقه كما سنرىٰ عند كلامنا علىٰ الكتاب. .

لقد كان الشيخ المصنف إذاً حلقة في سلسلة مباركة من العلماء والمحدثين، لكنه كان واسطة العقد كما أجمع علىٰ ذٰلكَ مترجموه[٤].

= وتلخيص ابن الفوطي ٤: الترجمة ٢١٦٠، وسير أعلام النبلاء ٢٢: ١٨٧، والعبر : ٨٠، ودول الإسلام ٢: ٩٣، وفوات الوفيات ١: ٥٤٤، وطبقات السبكي ٨: ١٧٧، والبداية والنهاية ١٣: ١٠١، والنجوم الزاهرة ٦: ٢٥٦، وشذرات الذهب ٥: ٩٢.

(١) طبقات السبكي ٧: ٧٠.

(٢) ترجمته في مرآة الزمان ٨: ٦٦٣، وذيل الروضتين ١٧٦، والعبر ٥: ١٠٨، وسير أعلام النبلاء ٢٢: ٢٨٤، وطبقات السبكي ٨: ١٤١، والبداية والنهاية ١٣: ١٢٧، والنجوم الزاهرة ٦: ٢٧٣، وشذرات الذهب ٥: ١٧٣.

(٣) طبقات الشافعية ٧: ٧٢ (في التعليقات).

(٤) قال أبو شامة المقدسي في ترجمة الفخر بن عساكر وهٰذا البيت بيت جليل من =

٤ـ شيوخه ورحلته في طلب العلم:

كان طلب العلم وتحصيله ثم روايته وتعليمه الشغل الشاغل للشيخ الحافظ طوال حياته؛ ترك له مرح الطفولة وغفلتها، وطيش الشباب ولهوه، ودعة الكهولة واستقرارها، وضعف الشيخوخة وكلالها، وظل ساعياً في دروبه التي لا تنتهي محققاً سنة نبينا ﷺ: «ليس منا إلا عالم أو متعلم» فقد بدأ سماع العلم منذ وعىٰ الدنيا من حوله، وأول سماع مكتوب له كان سنة ٥٠٥ وهو في السادسة من عمره إذ سمَّعه أخوه صائن الدين هبة الله[١]، وهٰذا كان دأب كبار الحفاظ والعلماء؛ يبدؤون السماع في مثل هٰذه السن وقبلها إذ الذاكرة طرية غضة ينطبع المسموع فيها فيبقىٰ منقوشاً في صفحاتها ما عاش السامع[٢]. «وكانت له إجازات عالية، فأجاز له مسند بغداد الحاجب الحسن بن العلاف، وأبو القاسم بن بيان، وأبو علي بن نبهان الكاتب، وأبو الفتح أحمد بن محمد الحداد، وغانم البرجي، وأبو علي الحداد المقرىء، وعبد الغفار الشيروي صاحب القاضي أبي بكر أحمد بن الحسن الحيري، وخلق سواهم أجازوا له وهو طفل»[٣].

وهكذا نجد الحافظ الكبير يروي في مشيخته إجازة عن عبد الله بن علي بن عبد الله أبي محمد بن الآبنوسي المتوفىٰ سنة ٥٠٥هـ[٤]، وعن شجاع بن

= الدمشقيين كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء جمع هٰذا البيت رياسة الدين والدنيا، وأجلهم في زمانه ديناً وعلماً هٰذا فخر الدين بن عساكر وفي القرن الذي قبله عماه الصائن هبة الله والحافظ أبو القاسم.

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٢٠: ٥٥٤، ومعجم الأدباء ١٣: ٧٥.

(٢) انظر ما نقله الذهبي في تذكرة الحفاظ عن سماع ابن الجوزي وهو في السادسة من عمره (٤: ١٣١) والحميدي وهو في الخامسة (٤: ١٧)، وما ذكره السمعاني عن سماع أبي بكر بن شيرويه وهو ابن ثلاث سنين ونصف سنة (التحبير ١: ٤٦٤).

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠: ٥٥٨.

(٤) الرواية رقم ٥٦٩ ومراجع الترجمة في التعليقات.

فارس بن الحسين، أبي غالب الذهلي المتوفىٰ سنة ٥٠٧هـ[١]. ويروي فيها سماعاً عن سبيع بن المسلم بن علي بن قيراط أبي الوحش الضرير المتوفىٰ سنة ٥٠٨هـ[٢]، وعن قوام بن زيد بن عيسىٰ أبي الفرج المري المتوفىٰ سنة ٥٠٩[٣]، وعن محمد بن الحسين بن محمد أبي طاهر الحنائي المتوفىٰ سنة ٥١٠[٤]، ويذكر أن الشيخ عبد الغفار بن محمد بن الحسين أبا بكر بن شيرويه المتوفىٰ سنة ٥١٠[٥] كتب إليه من بلده خراسان يجيزه الرواية عنه، والغريب أن يروي في مشيخته أيضاً عن عبد الرحمن بن حمد بن الحسن أبي محمد الدوني الصوفي قائلاً: «أخبرنا.. إجازةً وأخبرني عنه..»[٦] في حين تجمع مراجع ترجمة هٰذا الشيخ أنه توفي سنة ٥٠١هـ.

لقد بدأ الشيخ بتحصيل العلم في سن مبكرة بكل السبل المتوفرة تسميعاً وسماعاً أو إجازة ومكاتبة، وما كانت لتفوته فرصة لقاء شيخ مقيم بدمشق أو زائر لها أو مار بها سواء في بيته إن كان الشيخ من رواد هٰذا البيت أو كان من شيوخ أبيه أو جده أو أخيه الأكبر، أو في مسجد بني أمية أعظم مراكز العلم بدمشق في زمنه حيث تعقد حلقات الوعظ والحديث والعلوم المختلفة، وفي المدرسة الأمينية حيث كان أخوه الصائن معيداً لأبي الحسن السلمي[٧] وفي الزاوية الغزالية التي درَّس فيها أخوه أيضاً[٨]، فكان يحرص علىٰ سماع كل ما يُقرأ في تلك المجالس وخاصة في مجال الحديث وروايته، ويسعىٰ إلىٰ

---

(١) الرواية رقم ٤٩٥ ومراجع الترجمة في التعليقات.

(٢) الرواية رقم ٤٣٨ ومراجع الترجمة في التعليقات.

(٣) الرواية رقم. ١٠٤٠ ومراجع الترجمة في التعليقات.

(٤) الرواية رقم ١١٥٩ وانظر مراجع ترجمته في تعليقاتنا عليها.

(٥) الرواية رقم ٧٣٩ وانظر مراجع ترجمته في تعليقاتنا عليها.

(٦) الرواية رقم ٦٦٢ وانظر مراجع ترجمته في تعليقاتنا عليها.

(٧) انظر الدارس في تاريخ المدارس ١: ١٨٠، وأبو الحسن السلمي أول من درس بالأمينية بتعيين الواقف.

(٨) انظر الدارس في تاريخ المدارس ١: ٤١٣.

ما يخص الشافعية وفقههم، ويكاتب كبار الشيوخ في الأمصار، ومنها بلاد لم يطأها في حياته؛ فمن الاسكندريه مثلاً يبعث له علي بن المشرف أبو الحسن الأنماطي كتاباً بخطه[1]، ومنها أيضاً يجيزه علي بن عبد الله بن محمد أبو الحسن الجذامي الأندلسي[2]، لكن ما حصله في دمشق لم يكن ليروي غليله وتعطشه إلىٰ طلب العلم، فشد رحاله طالباً له علىٰ طريقة أصحاب الهمم في عصره ممن كانوا يرحلون في طلب الحديث[3].. فيمم وجهه شطر بلاد المشرق قبلة طالبي الحديث ومجتمع الرواة والحفاظ، وكانت رحلته الأولىٰ إلىٰ بغداد سنة ٥٢٠هـ بعيد وفاة والده، فمكث فيها سنة ثم عاد إلىٰ دمشق قاصداً الحج سنة ٥٢١ فانطلق منها جنوباً إلىٰ الديار المقدسة، ولم يفته في حجه أن يسمع من علماء الحرمين والمناسك، ومن كل عالم صادف وجوده هناك أو كان مجاوراً للكعبة الشريفة، وهكذا سمع بمكة من عبد الله بن محمد.. أبي محمد المصري ثم المكي[4]، وطاهر بن محمد بن طاهر أبي المظفر البروجردي الفقيه[5]، ومحمد بن أحمد بن يحيىٰ أبي عبد الله العثماني الديباجي المقدسي الفقيه الواعظ[6]، وقرأ فيها أيضاً تجاه الكعبة علىٰ رزين بن معاوية أبي الحسن العبدري المالكي السرقسطي وكان إمام المالكيين في الحرم[7]، وعلىٰ

---

(١) انظر الرواية ٩٥٥، ووفاة هٰذا الشيخ كما تحددها المصادر سنة ٥١٧.

(٢) انظر الرواية رقم ٨٩٥، ووفاة هٰذا الشيخ في حدود ٥٤٦هـ.

(٣) كانت الرحلة في طلب الحديث سنة أهل هٰذا العلم، ومنهم أخو المصنف الأكبر هبة الله صائن الدين الذي سبقت ترجمته وأهم مراجعها في هٰذه المقدمة ص٢٠ ـ ٢١ وجده لأمه يحيىٰ بن علي أبو المفضل بن الصائغ وقد أوجزنا الحديث عنه وذكرنا مراجع ترجمته ص٢١، وخالاه محمد أبو المعالي وسلطان أبو المكارم، وترجمتهما ومراجعها في الصفحة ٢٢.

(٤) انظر الرواية رقم ٥٧٥.

(٥) انظر الرواية رقم ٥٣٥.

(٦) انظر الرواية رقم ١١٠٦.

(٧) انظر الرواية رقم ٤١٣.

سفيان بن إبراهيم.. ابن يحيىٰ أبي محمد العبدي الأصبهاني[1]، وقرأ فيها أيضاً من حفظه علىٰ محمد بن منصور بن بكر أبي نصر النيسابوري[2]، وسمع القراءة علىٰ نبت بن عبيد أبي عيسىٰ النهدي اليمني[3]، وحتىٰ علىٰ مرجان بن عبد الله أبي الحسن الحبشي مولىٰ المقتدي بأمر الله[4]، فلم يكن ليقتصر علىٰ الأشراف والمشهورين بل كان العلم ضالته ينشده في كل مكان وعند أي إنسان، فقرأ بمنىٰ علىٰ مكي بن أبي طالب أبي الحسن البروجردي المعروف بابن قلاية[5]، وسمع بمدينة رسول الله ﷺ عبد الخلاق بن عبد الواسع أبا الفتوح الأنصاري الهروي[6]، وفيها أيضاً سمع شعراً لابن السيد البطليموسي في الاستغفار والزهد ينشده إبراهيم بن المتقن أبو إسحاق اللخمي المغربي السبتي بمسجد رسول الله ﷺ[7]، وغير هؤلاء كثير.. وبقي بعد أن غادر مكة يراسل شيوخها من مقيمين وحجاج ومجاورين ويستكتبهم الإجازات، فكان ممن كتب إليه بالإجازة منها: إسماعيل بن عبد العزيز أبو الوفاء العكي اليماني[8]، والحسن بن خلف أبو علي الكناني الشامي[9]، وعتيق بن أحمد أبو بكر الأزدي الأندلسي[10]..

ثم قفل من حجه عائداً إلىٰ العراق فأتم مكثه فيها خمس سنوات[11] يواظب

---

(١) انظر الرواية رقم ٤٧٥.
(٢) انظر الرواية رقم ١٣٧١.
(٣) انظر الرواية رقم ١٥٤٥.
(٤) انظر الرواية رقم ١٤٦٧.
(٥) انظر الرواية رقم ١٥٠٦.
(٦) انظر الرواية رقم ٦٢٥.
(٧) انظر الرواية رقم ١٦٥.
(٨) انظر الرواية رقم ١٨٦.
(٩) انظر الرواية رقم ٢٧٨.
(١٠) انظر الرواية رقم ٨٢٩.
(١١) انظر معجم الأدباء ١٣ : ٧٥.

علىٰ حضور الدروس بالمدرسة النظامية وينهل من شتىٰ العلوم ويتفقه ويتعلم العربية واستأثر الحديث بأعظم اهتمامه فحرص علىٰ سماعه من علماء بغداد وكبار الحفاظ فيه من أمثال هبة الله بن الحصين[١]، وعلي بن عبد الواحد الدينوري[٢]، وقراتكين بن الأسعد[٣]، وأبي غالب بن البناء[٤]، وابن ملوك الوراق[٥] وابن الطبر[٦]، والحسين بن محمد البارع الأديب[٧]، وغيرهم كثير جداً، ممن سمع منهم الكثير والقليل، وحفظ، ودون، وجمع الكتب والروايات، وحظي عند أهل بغداد وشيوخها، واشتهر بينهم بالذكاء والفطنة، فما كانوا يسمونه هناك «إلا شعلة نار، من توقده وذكائه وحسن إدراكه»[٨].

ولم يكتف بالسماع في بغداد بل حدث فيها أيضاً فروىٰ عنه من هم أكبر منه سناً كشيخه أبي العلاء الهمذاني[٩]. .

ولم يقتصر في تتبعه للحديث ورواياته علىٰ شيوخ بغداد بل سمع في سائر مدن العراق والجزيرة فممن سمعهم وقرأ عليهم من أهل الكوفة: كتائب بن

---

(١) الرواية رقم ١٥٩٩، وقبلها كثير، انظر فهارس الشيوخ: هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن الحصين.

(٢) الرواية رقم ٩٠٩.

(٣) الرواية رقم ١٠٣٨، وانظر قبلها أيضاً رقم ٤٥١.

(٤) الرواية رقم ١١ وبعدها كثير. انظر فهارس الشيوخ: أحمد بن الحسن بن أحمد.. أبو غالب الحريري.

(٥) الرواية رقم ١٠٧ وغيرها. انظر فهارس الشيوخ: أحمد بن محمد بن عبد الملك.. أبو المواهب.

(٦) الرواية رقم ١٥٧٥ (هبة الله بن أحمد بن عمر.. أبو القاسم الحريري).

(٧) الرواية رقم ٣٤٧.

(٨) نُقل هٰذا القول عن شيخه الحسن بن أحمد بن الحسن أبي العلاء الأديب المقرىء الهمذاني. انظر سير أعلام النبلاء ٢٠: ٥٦٤، وتذكرة الحفاظ ٤: ١٣٣١، وطبقات السبكي ٧: ٢١٨.

(٩) الرواية رقم ٢٦٧.

محمد أبو الفضل البجلي المعروف بابن دقشللة[١]، وأحمد بن سعيد أبو البركات الخزاز[٢]، وأحمد بن علي أبو المعالي الزيدي[٣]، وأحمد بن محمد أبو راشد[٤]، وعمر بن إبراهيم أبو البركات الزيدي[٥]، وابنه علي[٦].

وقرأ بالأنبار علىٰ محمد بن أحمد بن عمر أبي الفتح بن الخلال خطيب الأنبار[٧]، ومحمد بن محمد أبي عيسىٰ بن الشاطر[٨]، وصافي بن محفوظ أبي الفوارس المؤدب[٩].

ولم يدع معروفاً بالتحديث في بلاد الرافدين والجزيرة إلا مر به وسمع منه، فإن فاته ذلك كاتبه بعد ذلك، فممن كتب إليه من الكوفة حامد بن صالح أبو نصر البروجردي[١٠]، وسعيد بن محمد بن أحمد أبو غالب الثقفي[١١]، ومن الموصل ذو الفقار بن محمد أبو الصمصام العلوي[١٢]، ومحمد بن أحمد بن محمد أبو عبد الله بن أبي نصر الطوسي[١٣]، ونصر بن محمد بن أحمد أبو القاسم الموصلي[١٤].

---

(١) الرواية ١٠٤٤.

(٢) الرواية ٢٩.

(٣) الرواية ٧١.

(٤) الرواية ١٢٠.

(٥) الرواية ٩٦٨.

(٦) الرواية ٩١٨.

(٧) الرواية ١٠٧٨.

(٨) الرواية ١٣٥٤.

(٩) الرواية ٣٩٨.

(١٠) الرواية رقم ٢٥٨.

(١١) الرواية رقم ٤٦٤.

(١٢) الرواية رقم ٤٠٧.

(١٣) الرواية رقم ١١٠١.

(١٤) الرواية رقم ١٥٦٠.

ثم عاد إلى بلده دمشق سنة ٥٢٥ ومكث فيها مدة رزق أثناءها ولده القاسم سنة ٥٢٧ هـ وكان منذ قدمها عازماً علىٰ الرحلة في طلب الحديث كرة أخرىٰ مستعداً لذلك ما يؤخره عنه إلا أن أمه لم تأذن له في أن يفارقها ثانية[١]، فلما ماتت ما لبث أن انطلق في رحلته الثانية سنة ٥٢٩ إلىٰ خراسان علىٰ طريق أذربيجان[٢]، وكانت مدن تلك الأصقاع تستقطب الحفاظ والمحدثين وطالبي العلم من كل بلاد المسلمين، ويتحدث الشيخ الحافظ عن رحلته فيقول:

«وإلىٰ الإمام محمد الفراوي[٣] كانت رحلتي الثانية لأنه كان المقصود بالرحلة في تلك الناحية لما اجتمع فيه من علو الإسناد ووفور العلم وصحة الاعتقاد ولين الجانب والإقبال بكليته علىٰ الطالب، فأقمت في صحبته سنة كاملة، وغنمت من مسموعاته فوائد حسنة..»[٤] لقد كانت الرحلة في نظره مثل جهاد الفاتحين والفوائد والمسموعات هي غنائم هذا الجهاد..، فكان ممن سمع منهم فيها أبو محمد السيدي، وزاهر ووجيه ابنا طاهر الشحامي، وأبناء أبي المظفرالقشيري. ثم غادر نيسابور إلىٰ هراة وأصبهان وغيرها من بلاد العجم، فما ترك فيها قرية كبيرة ولا مدينة صغيرة إلا قصدها وسمع علىٰ شيوخها كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً، ونظرة متصفحة لفهرس البلدان والمواضع تدلنا علىٰ أنه مسح تلك البلاد مسحاً كاملاً[٥]، وبه نهم إلىٰ العلم لا يشبع..

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠: ٥٦٧، وتذكرة الحفاظ ٤: ١٣٣٣

(٢) خريدة القصر، قسم شعراء الشام ١: ٢٧٤

(٣) هو محمد بن الفضل بن أحمد أبو عبد الله الفراوي الصاعدي الفقيه الواعظ، روىٰ عنه في المشيخة أكثر من عشر روايات. انظر فهرس الشيوخ.

(٤) تبيين كذب المفتري ص٣٢٥.

(٥) منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر: أبيورد وأذربيجان وأصفهان وبيهق وخسروجرد وتبريز وطهران وطوس وغاز وقاشان ومرو وميهنة وبسطام ودامغان ونوقان ونيسابور وهراة وهمذان، والري، وسرخس..

وهناك التقىٰ برفاق صاحبوه في رحلاته وسماعاته وتعاونوا علىٰ الكتابة والاستنساخ والقراءة والسماع وتبادل الروايات وتحصيل الإجازات، وأشهر رفاقه هؤلاء عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعد بن أبي المظفر السمعاني الذي لقيه بنيسابور في بداية رحلته، وكان الحافظ قد سبقه إليها بشهر واحد، جمعهما حب العلم، وروىٰ كل منهما علىٰ الآخر وذكره في معجم شيوخه[1]، ودامت صداقتهما إلىٰ ما بعد رجوع الشيخ الحافظ إلىٰ دمشق قال أبو سعد: «دخل نيسابور قبلي بشهر، سمعت منه، وسمع مني، وسمعت منه معجمه، وحصل لي بدمشق نسخة به، وكان قد شرع في التاريخ الكبير لدمشق، ثم كانت كتبه تصل إلي وأنفذ جوابها»[2].

لقد طاف أرجاء شاسعة، وجمع علوماً وافرة خلال هذه الرحلة التي استغرقت من عمره أربع سنوات عاد بعدها إلىٰ بغداد، ومنها إلىٰ دمشق سنة ٥٣٣[3] بعد أن طبقت شهرته الآفاق وروىٰ عنه شيوخه بله أقرانه.

وفي هٰذه السنة شرع بالتحديث ملبياً رغبة ذويه وأعيان بلده مستحياً من حب الرئاسة والظهور، وهو يشرح لنا هٰذا في كلامه لولده القاسم: «قال لي جدي القاضي أبو المفضل لما قدمت من سفري: اجلس إلىٰ سارية من هٰذه السواري حتىٰ نجلس إليك، فلما عزمت علىٰ الجلوس اتفق أنه مرض ولم يقدر له بعد ذٰلكَ الخروج إلىٰ المسجد»[4] وقال له أيضاً: «لما عزمت علىٰ التحديث، والله المطلع أنه ما حملني علىٰ ذٰلكَ حب الرئاسة والتقدم، بل قلت: متىٰ أروي كل ما قد سمعته، وأي فائدة في كوني أخلفه بعدي صحائف؟ فاستخرت الله، واستأذنت أعيان شيوخي ورؤساء البلد وطفت عليهم، فكل قال: ومن أحق

(١) انظر الرواية ٧٥٧ من معجم شيوخ ابن عساكر.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠: ٥٦٧، وتذكرة الحفاظ ٤: ١٣٣٠
(٣) قال أبو سعد السمعاني إنه لقيه ببغداد في هٰذه السنة. انظر الخريدة ١: ٢٤٧.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢٠: ٥٦٦، وتذكرة الحفاظ ٤: ١٣٣٢.

بهٰذا منك ؟ فشرعت في ذٰلكَ سنة ثلاث وثلاثين»[1].

ولم يكن قعوده للتحديث نهاية لجمعه وتحصيله فقد ظل راغباً في المزيد من ذٰلكَ، آسفاً علىٰ ما لم يحصل نُسخَه من مسموعاته في رحلاته، محدثاً نفسه برحلة ثالثة لاستكمالها بنفسه، لولا أن كفاه الله مؤونة ذٰلكَ، قال ابنه القاسم:

«وكان أبي رحمه الله قد سمع أشياء لم يحصل منها نُسَخاً اعتماداً علىٰ رفيقه الحافظ أبي علي بن الوزير[2]، وكان ما حصله ابن الوزير لا يحصله أبي، وما حصله أبي لا يحصله ابن الوزير، فسمعت أبي ليلة يتحدث مع صاحب له في ضوء القمر في الجامع[3]، فقال: رحلت وما كأني رحلت، وحصلت وما كأني حصلت؛ كنت أحسب أن رفيقي ابن الوزير يقدم بالكتب التي سمعتها مثل «صحيح البخاري» و«مسلم» وكتب البيهقي وعوالي الأجزاء، فاتفقت سكناه بمرو وإقامته بها، وكنت أؤمل وصول رفيق آخر يقال له: يوسف بن فاروا الجياني ووصول رفيقنا أبي الحسن المرادي فإنه يقول لي: ربما وصلت دمشق، وتوجهت منها إلىٰ بلدي بالأندلس، وما أرىٰ أحداً منهم جاء! فلا بد من الرحلة الثالثة وتحصيل الكتب والمهمات؛ قال: فلم يمض إلا أيام يسيرة حتىٰ قدم أبو الحسن المرادي، فأنزله أبي في منزلنا، وقدم بأربعة أسفاط مملوءة من الكتب المسموعات، ففرح أبي بذلك فرحاً شديداً، وكفاه الله مؤونة السفر، وأقبل علىٰ تلك الكتب فنسخ واستنسخ وقابل، وبقي من مسموعاته أجزاء نحو الثلاثمائة فأعانه عليها أبو سعد السمعاني، فنقل إليه جملة حتىٰ لم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠: ٥٦٥.

(٢) هو الحسن بن مسعود الدمشقي، ولد بها سنة ٤٩٨، وتوفي بمرو سنة ٥٤٣، تاريخ مدينة دمشق ٤: ٣٠٢ (نسخة سليمان باشا). وخريدة القصر، قسم شعراء الشام ١: ٢٨٤ وسير أعلام النبلاء ٢٠: ١٧٧، وتذكرة الحفاظ ٤: ١٢٩٧، وميزان الاعتدال ١: ٥٢٣، والوافي بالوفيات ١٢: ٢٦٩، ولسان الميزان ٢: ٢٥٦، وتهذيب تاريخ دمشق ٤: ٢٥٣.

(٣) يريد جامع بني أمية الكبير بدمشق.

يبق عليه أكثر من عشرين جزءاً، وكان كلما حصل له جزء منها كأنه حصل علىٰ ملك الدنيا»[1].

وبقي مع ذٰلكَ يراسل الشيوخ والمحدثين في كل البلدان ممن كان قد لقيهم في رحلاته أو من الذين لقيهم ولم تطأ قدمه بلادهم، ويحرص في الوقت نفسه علىٰ السماع من كل من يمر بدمشق من الشيوخ والعلماء، وهٰذا يفسر لنا وجود عدد من الشيوخ الذين يروي عنهم في تاريخ دمشق ومصنفاته الأخرىٰ ولا ذكر لهم في معجم شيوخه وربما يسر الله أن أصنع ثبتاً بأسماء هؤلاء ألحقه بآخر الكتاب.

٥ـ عقيدته وأخلاقه:

كان المصنف الحافظ شيخ السنة المنافح عنها المتحلي بأخلاق أجلة العلماء، أمره كله دين وحسن سمت وعفاف واجتهاد في العبادة وحرص علىٰ العلم وإعراض عن المناصب والرئاسات.

قال فيه معاصره العماد الأصبهاني: «وهو الحافظ الذي تفرد بعلم الحديث، والاعتقاد الصحيح، المنزه من التشبيه، المحلىٰ بالتنزيه، المتوحد بالتوحيد، المظهر شعار الأشعري بالحد الحديد، والجد الجديد، والأيد الشديد»[2].

واستغل معاصره الآخر ابن الجوزي ـ وكان له حاسداً ـ حماسته للمذهب الأشعري لينبزه بالتعصب فقال: «وكان شديد التعصب لأبي الحسن الأشعري، حتىٰ صنف كتاباً سماه كذب المفتري علىٰ أبي الحسن الأشعري»[3].

بينما أشاد معاصروه الآخرون بانتمائه إلىٰ هٰذا المذهب الذي عرف بحرصه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٦، وطبقات السبكي ٧ : ٢٢٠.

(٢) خريدة القصر، قسم شعراء الشام ١ : ٢٧٦.

(٣) المنتظم ١٠ : ٢٦١.

علىٰ التنزيه والتوحيد وبعده عن التشبيه والتجسيد، إذ كان هم الحكام والعلماء آنذاك أن يزيلوا ما بقي من آثار الفاطميين وبدعهم وأن يظهروا السنة الصحيحة لتقف في وجه المذاهب المنحرفة، وهٰذا أحد شعراء العصر يشيد بعقيدة الشيخ مبيناً صحة مذهبه إذ يقول عنه:

نمىٰ للإمام الشافعي مقالة ... فأصبح يثني عنه كل مجادل
وأيد قول الأشعري بسنة ... فكانت عليه من أدل الدلائل
وكم قد أبان الحق في كل محفل ... فأروىٰ بما يروي ظماء المحافل
وسد من التجسيم باب ضلالة ... ورد من التشبيه شبهة باطل[1]

ومن أصدق ما يبين عقيدة الشيخ شعر له أنشده في آخر مجلس له في صفات الله عز وجل إذ يقول:

الحمد لله الذي ... يرجو الخلائق منه فضلَه
متكلم لا يعتري ... قولاً له خَرَسٌ وعِلَّةْ
لكلامه نعت الكما ... ل فلا تكن في ذاك أبله
خلق السماء كما يشا ... ء بلا دعائم مستقله
لا للتحيز كي تكو ... ن لذاته جهة مُقلةْ
ربٌ علىٰ العرش استوىٰ ... قهراً وينزل لا بنقله
ويرىٰ ويسمع لا بجا ... رحةٍ ولا إنسانِ مُقْله
إذ كان فرداً غير منـ ... ـعوت بأبعاض وجمله
صمداً تنزه أن تقو ... م به الحوادث أو تَحِلَّه
لا مبتداً لوجوده ... إذ كان مخترع الأهلَّه
وبقاؤه لا ينقضي ... بل يسترد الأمر كله

---

(١) هٰذه الأبيات من قصيدة نظمها الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري في رثاء ابن عساكر. انظر معجم الأدباء ١٠ : ٤٨ ـ ٥٥ وسننقل أبياتاً أخرىٰ منها عند الكلام علىٰ وفاة الشيخ الحافظ.

يعطـــــي ويمنـــــع عبـــــده ما عنـــده مـــن غيـــر خَلَّـــه

ويحـــب أهـــل الخيـــر مَنْـ ـنــاً غيـــر منتفـــع بخُلَّـــه

وهـــو الحليـــم فطـــالمـــا ستـــر العصـــاة لـــه بمهلـــه

هٰـــذا اعتقـــاد مـــوحِّـــدٍ عـــرف المـــذاهـــب بـــالأدلـــه

أبـــداً ينـــزه فـــاعتقـــد ه فلســـت تسمـــع قـــط مثلـــه

وذر اعتقـــاد مشبـــه لله عنـــك فمـــا أضلـــه[1]

وكانت حياة الشيخ وأعماله وأخلاقه متناسقة أكمل التناسق مع عقيدته استقامةً ونزاهةً وإخلاصاً فنال إعجاب الجميع واستدر ثناءهم الجميل:

فقد أثنىٰ عليه شيخه أبو العلاء الهمذاني إمام همذان وتلك الديار غير مدافع أحسن الثناء وامتدح فيه سعة العلم وحدة الذكاء وعفة النفس[2].

ووصف ولده القاسم ما رآه بنفسه من سيرة أبيه فقال: «وكان مواظباً علىٰ صلاة الجماعة، وتلاوة القرآن الكريم؛ يختم في كل جمعة، ويختم في رمضان كل يوم، ويعتكف في المنارة الشرقية، وكان كثير النوافل والأذكار، يحيي ليلة النصف والعيدين بالصلاة التسبيح، ويحاسب نفسه علىٰ كل لحظه تذهب في غير طاعة»[3].

وقد أبدىٰ أبو المواهب بن صصرىٰ دهشته من قدرة الشيخ علىٰ الالتزام بهٰذه السيرة الجادة الحازمة علىٰ الدوام فقال: «لم أر مثله ولا من اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة من لزوم الجماعة في الخمس في الصف الأول ـ إلا من عذر ـ والاعتكاف في رمضان وعشر ذي الحجة، وعدم التطلع إلىٰ تحصيل الأملاك وبناء الدور، قد أسقط ذٰلكَ عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة، وأباها بعد أن

---

(١) منقول عن مقدمة كتاب تبيين كذب المفتري ص ٢ و ٣.

(٢) انظر كلامه في معجم الأدباء ١٣ : ٨٤، وسير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٢.

عرضت عليه، وقلة التفاته إلىٰ الأمراء، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم»[١].

وقال رفيقه أبو سعد السمعاني: «أبو القاسم حافظ ثقة متقن دَيِّن خير حسن السمت جمع بين معرفة المتن والإسناد، وكان كثير العلم، غزير الفضل، صحيح القراءة متثبتاً، رحل وتعب وبالغ في الطلب، وجمع ما لم يجمعه غيره، وأربىٰ علىٰ الأقران»[٢]. هٰذه شهادات معاصريه من شيوخه وأقربائه وأصدقائه وتلامذته، وحتىٰ أولئك الذين لم تربطه بهم علاقات حسنة ما استطاعوا أن يغضوا من شأنه أو يحطوا من قدره، ومنهم من ندم علىٰ تضييع فرصة لقائه والاستفادة منه، فقد روي «أن الحافظ عبد الغني المقدسي بعد موت ابن عساكر نَفَّذ من استعار له شيئاً من «تاريخ دمشق» فلما طالعه انبهر لسعة حفظ ابن عساكر، ويقال ندم علىٰ تفويت السماع منه، فقد كان بين ابن عساكر والمقادسة واقع. رحم الله الجميع»[٣].

وما كانت أخلاق الشيخ الحافظ بما فيها من تقوىٰ وحرص علىٰ عدم تضييع الوقت لتسمح له بالاهتمام لأمر المعارضين، ولا الرد علىٰ الحاسدين، ولا السعي وراء المتنفذين، فقد «كان فيه انجماع عن الناس وخير، وترك للشهادات علىٰ الحكام وهٰذه الرعونات»[٤].

ولهٰذا السبب قال شيخه أبو العلاء الهمذاني بعد أن أثنىٰ عليه خير ثناء: «فلو خالق الناس ومازجهم كما أصنع إذاً لاجتمع عليه الموافق والمخالف»[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٥، وتذكرة الحفاظ ٤ : ١٣٣٢.
(٢) خريدة القصر، قسم شعراء الشام ١ : ٢٧٤، وسير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٧، وتذكرة الحفاظ ٤ : ١٣٣٠، وربما يكون السمعاني قد قال هٰذا الكلام في ذيل تاريخ بغداد إذ لم أجده في مشيخة السمعاني (التحبير).
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٨.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٧٠.
(٥) معجم الأدباء ١٣ : ٨٤، وسير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٤، وتذكرة الحفاظ ٤ : ١٣٣١.

ولا يعني هٰذا أن الشيخ الحافظ كان بمعزل عن المجتمع لا يأبه بمعاناة الناس من حوله، بعيداً عن واقع بلده وبلاد المسلمين، لا يهمه ما يحدث فيها، بل كان علىٰ العكس من ذٰلكَ يفرح لفرح الناس، ويألم لألمهم، ويهمه ما يرىٰ من عدوان الصليبيين علىٰ بلاد المسلمين ومقدساتهم، مع انشغال بعض الحكام عنهم بأمور سلطانهم، فكان يعمل ما بوسعه لا يألو جهداً في النصح للأمة، والاهتمام لأمر العامة، وتشجيع السلاطين علىٰ كل ما يصلح أمر البلاد، وعلىٰ الجهاد في سبيل الله[1] ومجابهة الأعداء، وتطهير بلاد المقدس من دنسهم. قال العماد الأصبهاني: «ومما أنشدنيه [أي ابن عساكر] لنفسه وقد أعفىٰ الملك نور الدين قدس الله روحه أهل دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره علىٰ مصر، فكتبه إليه يهنيه، وأملاه علي في الثاني والعشرين من جمادىٰ الأولىٰ سنة أربع وستين وخمسمائة:

لما سَمحت لأهل الشام بالخشب	عُوضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسباً	للأجر جوزيت أجراً غير محتسب
والأجر في ذاك عند الله مرتقب	فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه	خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد	أصبحت تملك من مصر إلىٰ حلب
وصاحب المَوصل الفيحاء ممتثل	لما تريد فبادر فجأة النُّوَبِ
فأحزمُ الناس من قوىٰ عزيمته	حتىٰ ينال بها العالي من الرتب
وقد بلغت بحمد الله منزلة	عليّةً فاقصد العالي من القُرَبِ

---

(١) من مصنفاته كتاب الأربعين في الجهاد. ذكره ياقوت في معجم البلدان، والذهبي في السير، وغيرهما، ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق. انظر كتاب ابن عساكر ص: ٣٤٦.

فـالجِـدُّ والجَـدُّ مقـرونـان فـي قَـرَنٍ   والحَزْمُ في العزم، والإدراك في الطلب
وطهِّـرِ المسجـد الأقصـىٰ وحـوزتـه   من النجاسات والإشراك والصُّلُبِ
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا   وفي القيامة تلقىٰ حُسن مُنْقَلَبِ[1]

هكذا كان في صحبته لنور الدين[2] يهيب به أن يحرر القدس وبلاد المسلمين، ويبارك انتصاراته وإصلاحاته، وهو الذي حثه علىٰ إنشاء دار خاصة للحديث[3] بدمشق ففعل، وولاه مشيختها، فكانت أول مدرسة أنشئت في الإسلام للحديث، لنشر السنة والقضاء علىٰ المذهب الشيعي[4].

هكذا كانت سيرة الشيخ وأخلاقه وهكذا كان دأبه طوال حياته، فلما سئل ابنه القاسم عنه وعما فُتح له ـ أي من أمر الدنيا ـ وكيف برُّ الناس له ؟ أجاب: «هو بعيد من هٰذا كله لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والمطالعة والتسميع حتىٰ في نزهه وخلواته»[5].

---

(١) خريدة القصر، قسم شعراء الشام ١ : ٢٧٦، ورويت الأبيات في كتاب الروضتين ١ : ١٦٠.

(٢) دخل نور الدين دمشق سنة ٥٤٩ هـ فأعجب بالشيخ وقربه وكان يحضره مجالسه ويستمع إليه ودامت صحبتهما إلىٰ حين وفاة نور الدين سنة ٥٦٩.

(٣) صنف كتاباً في ثلاثة أجزاء، ذكره ياقوت بعنوان «تقوية المنة علىٰ إنشاء دار السنة» والذهبي بعنوان «في إنشاء دار السنة» انظر معجم الأدباء ١٣ : ٢٧٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٠.

(٤) وهي المدرسة المعروفة بدار الحديث النورية، وهي أول دار بنيت للحديث خاصة، ووقفت عليها أوقاف بجوارها منها حمام قايماز وفرن بجواره. قال النعيمي: وهي تقع تجاه العادلية الصغرى وحمام ابن موسك. . انظر الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٩٩ـ١٠٠، وما زالت هذه المدرسة قائمة بين العصرونية وباب البريد قرب جامع بني أمية.

(٥) معجم الأدباء ١٣ : ٨٤ ـ ٨٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٤.

٦ـ مؤلفاته وآثاره:

ليس عجيباً ممن لم يشغل نفسه أربعين سنة بغير العلم ومن يحاسبها علىٰ كل لحظة تذهب في غير فائدة أن يخلف كل هٰذه المؤلفات التي بهرت مترجميه بكثرتها وضخامتها فلم يسع ابن خلكان إلا أن يقول: «إنه كان محظوظاً في الجمع والتأليف»[1]، كيف لا ؟ وقد صاحب انقطاعَه إلىٰ العلم وانحصارَ همته فيه حدةُ ذكاء وقوة حافظة تروىٰ عنهما الأخبار، أما كانوا يسمونه في بغداد شعلة نار من توقده وحسن إدراكه ؟! ومن عجائب ما وصلنا عن قوة ذاكرته ما رواه ابن النجار إذ قال: «وسمعت شيخنا عبد الوهاب بن الأمين قال: كنت يوماً مع الحافظ أبي القاسم بن عساكر وأبي سعد السمعاني نمشي في طلب الحديث ولقاء الشيوخ، فلقينا شيخاً، فاستوقفه ابن السمعاني ليقرأ عليه شيئاً، وطاف علىٰ الجزء الذي هو سماعه في خريطته، فلم يجده، وضاق صدره، فقال له ابن عساكر: ما الجزء الذي هو سماعه ؟ قال: كتاب البعث والنشور لابن أبي داود، سمعتُه من أبي نصر الزيني. فقال: لا تحزن، وقرأه عليه من حفظه، أو بعضه. قال ابن النجار: الشك من شيخنا»[2].

و«قال الحافظ أبو محمد عبد العظيم المنذري: سألت شيخنا الحافظ أبا الحسن علي بن المفضل المقدسي فقلت له: أربعة من الحفاظ تعاصروا، أيهم أحفظ ؟ قال: من هم ؟ قلت: الحافظ ابن عساكر، وابن ناصر، قال: ابن عساكر أحفظ. قلت: الحافظ أبو العلاء وابن عساكر، قال: ابن عساكر أحفظ. قلت: الحافظ أبو طاهر السِّلَفي وابن عساكر، فقال: السلفي أستاذنا، السلفي أستاذنا» قالوا: «هٰذا دليل علىٰ أن عنده ابن عساكر أحفظ، إلا أنه وقَّر شيخه أن

(١) وفيات الأعيان ٣: ٣١٠.
(٢) طبقات السبكي ٧: ٢١٩.

يصرح بأن ابن عساكر أحفظ منه. قال الذهبي: وإلا فابن عساكر أحفظ منه»[١].

ومن الدلائل علىٰ سعة حفظه غزارة انتاجه فقد «أملىٰ أربعمائة مجلس وثمانية مجالس في فن واحد، وخرج لشيخه أبي غالب بن البنّاء أحد عشر مشيخة»[٢] وخلف عدداً كبيراً من المؤلفات ذكر ولده القاسم أن عدتها ستون كتاباً، لكن هٰذا العدد يرتفع كثيراً إذا ضمت إليه المجالس والأجزاء والمشيخات فقد سمىٰ ياقوت في معجم الأدباء أكثر من مئة مؤلف للشيخ منها ما يقع في جزء واحد أو أجزاء قليلة، ومنها مايقع في مئات الأجزاء، وبعضها تم نشره في عصره، ومنها ما بقي علىٰ المسودات ولم يتم تأليفه، وكثير منها فقد بعد وفاته لطوله وعدم من يقوم بنسخه ونشره[٣].

وقد صنع الأستاذ مطاع الطرابيشي ثبتاً لمؤلفات ابن عساكر فبلغ عددها مئة وثلاثة وأربعين مصنفاً[٤].

لكن أعظم مؤلفات الشيخ الحافظ وأدلها علىٰ علمه وثقافته وأسلوبه كتابه الذي سماه «تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها» وهو يقع في خمسمائة وسبعين جزءاً حسب تجزئة الأصل، والنسخة الجديدة ثمانمائة جزء بيضها ولده القاسم بخطه في ثمانين مجلداً[٥]، وقد عاينت مصداق كل من التجزئتين في نسخ التاريخ المخطوطة التي تضمها خزانة مجمع اللغة العربية بدمشق ومنها نسخة الأزهر، وأحمد الثالث، وسليمان باشا، وييل وغيرها.

---

(١) طبقات السبكي ٧: ٢٢٠.
(٢) معجم الأدباء ١٣: ٨١.
(٣) معجم الأدباء ١٣: ٧٧ ـ ٨٣.
(٤) انظر كتاب «ابن عساكر في ذكرىٰ مرور تسعمائة سنة علىٰ ولادته» ص ٣٤٤ ـ ٣٦٠.
(٥) معجم الأدباء ١٣: ٧٦، وذيل الروضتين ص ٤٧.

ويبقىٰ هٰذا الكتاب حتىٰ الآن أضخم ما ألف في تاريخ دمشق، وقد أثار بشموله واتساعه وغزارة مادته وتنوعها دهشة العلماء والمؤرخين فقال ابن خلكان: «صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة أتىٰ فيه بالعجائب»[1]. وجرىٰ ذكر هٰذا الكتاب عند الحافظ العلامة زكي الدين المنذري وطال حديثه في أمره واستعظامه فقال: «ما أظن هٰذا الرجل إلا عزم علىٰ وضع هٰذا التاريخ من يوم عقل علىٰ نفسه، وشرع في الجمع من ذٰلك الوقت، وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع الإنسان مثل هٰذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه»[2].

وقد اتبع الحافظ ابن عساكر في كتابه هٰذا الأسلوب الذي كان شائعاً في عصره وهو أسلوب المحدثين فكان ينقل كل خبر سواء كان لحوادث تاريخية أو تراجم الرجال من عهد آدم إلىٰ عصره مسبوقاً بسنده كاملاً، وقد يكرر الخبر مرات كثيرة بأسانيد متعددة لاختلاف الروايات اختلافاً طفيفاً وهٰذا ما شجع كثيرين علىٰ اختصاره أو تهذيبه[3]، وأشهر مختصراته بين أيدينا مختصر ابن منظور الإفريقي مؤلف لسان العرب، وقد طبعته دار الفكر بدمشق كاملاً في ٢٩ مجلدة، رغم أن بعضها كان مفقوداً لكنه اختصر من أصل التاريخ علىٰ طريقة ابن منظور.

أما كتاب التاريخ الكبير نفسه فما زال مجمع دمشق عاكفاً علىٰ إخراجه نحواً من نصف قرن، فقد أصدر المجلدة الأولىٰ منه محققة عام ١٩٥١ وتباطأ العمل فيه فترة من الزمن ثم تتالت المجلدات تطبع بتحقيق عدد من الأساتذة والدكاترة، لكن النصيب الأوفىٰ من العمل كان للأستاذة الأخت سكينة الشهابي

(١) وفيات الأعيان ٣: ٣١٠.

(٢) وفيات الأعيان ٣: ٣١٠، والوافي بالوفيات ١٩ : ١٨٤/ ب (مخطوط).

(٣) انظر ثبتاً بأهم مختصراته والمختارات منه في مقدمة المجلدة الأولىٰ من التاريخ صنعة الدكتور صلاح الدين المنجد ص ٤٩ و ٥٠.

فقد طبع بتحقيقها حتىٰ الآن (١٥) مجلدة، وأعلم أن عندها أكثر من ثماني مجلدات أخرىٰ تنتظر الطبع.

وإذا استعرضنا أسماء مصنفات الشيخ ونظرنا في ما وصلنا منها رأينا الحديث سداها ولحمتها، وإن كان بعضها داخلاً في التاريخ مثل «تاريخ دمشق الكبير» و«مجالس في ذم اليهود وتخليدهم في النار». .

وبعضها في التراجم مثل «أخبار أبي عمرو الأوزاعي وفضائله» و«معجمات الشيوخ المتعددة» التي صنعها لنفسه ولمشايخه ولأصحاب الكتب الستة، و«من وافقت كنيته كنية زوجته» و«فضائل الصحابة» و«فضائل الصديق» و«فضائل عمر» و«فضائل عثمان» و«فضائل علي». .

وبعضها في البلدان مثل: «فضل المدينة» و«فضل مكة» و«فضل القدس» و«فضل عسقلان» و«فضل الربوة والنيرب» و«معجم أسماء القرىٰ والأمصار التي سمع بها» وغير ذٰلك. .

وبعضها في العقيدة والمذاهب والفتوىٰ مثل: «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ أبي الحسن الأشعري» الذي ألفه للرد على الحنابلة وخاصة الحسن بن علي الأهوازي الدمشقي مقرىء الشام المتوفى سنة ٤٤٦ هـ وكان يكره مذهب الأشعري ويضعفه، و«الأمالي في الصوم» و«صفات الله عز وجل» و«نفي التشبيه» و«صوم يوم الشك» و«اتخاذ المنبر» و«تشريف يوم الجمعة». .

ومنها ما يدخل في الوعظ والأخلاق وأمور المجتمع مثل: «التوبة» و«ثواب الصبر علىٰ المصاب بالولد» و«سعة رحمة الله» و«مناقب الشبان» و«ذم قرناء السوء» و«مدح التواضع وذم الكبر» و«ذم من لا يعمل بعلمه» و«الخضاب» و«حلول المحنة بحصول الأبنة». .

ومنه فهارس ربما يكون صنعها للاستفادة منها في تصنيفاته ومجالسه مثل كتاب «الإشراف علىٰ معرفة الأطراف» الذي فهرس فيه كتب السنن الأربعة، وكتاب «ترتيب الصحابة في مسند أحمد» و«ترتيب الصحابة الذين في مسند أبي يعلىٰ».

ومنها ما هو انعكاس لأحداث عصره، وصورة لتفاعله مع ما يجري من حوله فقد صنف في الحث علىٰ الجهاد لدفع خطر الصليبيين والتخلص منهم مثل «الزهادة في الشهادة» و«فضل الجهاد» و«أربعون حديثاً في الحث علىٰ الجهاد» وصنف مشجعاً علىٰ بناء مدارس فقهية للسنة «تقوية المنة علىٰ إنشاء دار السنة». .

وسائر مصنفاته داخل في علم الحديث مثل: «الأحاديث الخماسيات» و«السداسيات» و«تجريد السباعية» و«الأربعون الطوال» و«الأربعون البلدانية» وهو أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً من أربعين مدينة، و«الأربعون الأبدال العوالي» و«تهذيب الملتمس من عوالي مالك بن أنس» و«عوالي حديث سفيان الثوري» و«عوالي شعبة» و«غرائب مالك» و«الموافقات علىٰ شيوخ الأئمة الثقات» و«من نزل المزة وحدث بها» و«حديث أهل جوبر» و«حديث أهل دومة» ومسرابا وحرستا ومنين. . وغيرها أجزاء كثيرة كل منها يجمع حديث أهل قرية من قرىٰ غوطة دمشق منها ما بقي معروفاً، ومنها ما دثرت معالمه. .

وما هٰذا التقسيم الذي عرضنا فيه بعض مصنفات الشيخ الحافظ إلا تقسيم ظاهري، فالكتاب لا يستقل بموضوع واحد، بل يشمل أطرافاً من الثقافة العربية الإسلامية متنوعة، سواء في المؤلفات الضخمة كالتاريخ، أو الأجزاء المتفرقة والمجالس فهي غالباً لا تخلو من شعر وأدب أو جغرافية أو طرائف أو لغة وحكايات وأمثال.

ولا ننكر أن جل مصنفات الحافظ يقوم علىٰ الجمع والتبويب لا علىٰ الإبداع الذاتي، لكنه بجمعه هٰذا قد حفظ لنا تراثاً عظيماً ضخماً فما أكثر الكتب والمؤلفات والمرويات التي فقدت أصولها وضاعت، وما كنا نعرف من مضمونها شيئاً لولا أن الشيخ الحافظ قد ضمنها في ثنايا مؤلفاته.

ويتبع الحافظ في مؤلفاته عامة أسلوب المحدثين في نقل الأخبار مشفوعة بأسانيدها برواياتها المختلفة فيجمعها وينسقها ويبوبها ويعرضها بطريقة تناسب

الموضوع العام للكتاب أو الرسالة أو المجلس إلا أننا لا نعدم آثار شخصيته في الاختيار وتقديم بعض الروايات علىٰ بعض والتعليق علىٰ بعضها من حيث المضمون أو مدىٰ ضبط رجال السند، أو معارضتها بروايات أخرىٰ تعضدها، أو تضعفها بحيث يوجه القارىء إلىٰ ما يريد وهو مختف وراء الروايات والأسانيد، ويظهر هٰذا جلياً لمن يقرأ الكثير من مصنفات الشيخ وخاصة تاريخ مدينة دمشق، انظر إن شئت في ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه، أو في تراجم عمرو بن العاص وبعض رجال بني أمية، فستجده بارعاً في جمع الأخبار والروايات وجذب خيوطها وتحريكها من وراء ستار لتظهر للقارىء صورة المترجم أوضح ما تكون وأصدق ما يمكن مع التملص من التبعات السياسية التي قد يؤدي إليها الحكم المباشر علىٰ شخصيات هامة.

وقد يستطرد بذكر طرفة مستملحة، أو خبر أدبي، أو قصيدة مستجادة مع تحليل لغوي لها منصرفاً عن الكلام علىٰ شخصية لها أهمية تاريخية بالغة كفعله في ترجمة عبد الرحمن الداخل فهو بهٰذا يروح عن القارىء، ويسد ثغرة النقص في المعلومات الموثوقة المروية بالأسانيد، ويربأ بنفسه عن رعونة التسرع في إطلاق الأحكام.

وكيفما تلون أسلوب الشيخ الحافظ باختلاف موضوعاته، فهو ملازم دوماً للرصانة والجد والبساطة مقتصد فيما شاع في أساليب عصره من إغراق في الصنعة والتكلف، فأسلوبه بشكل عام أسلوب العلماء المؤرخين المحدِّثين، أسلوب مباشر موجز يأخذ بنصيبه من محسنات اللفظ والتصوير كما نرىٰ في المقدمات الموجزة التي يصدر بها كتبه.

ومع هٰذا الجد كان الشيخ الحافظ ميالاً إلىٰ الشعر يحب أن يرويه وينظمه لا افتتاناً بما في الشعر من فن وجمال وانطلاق في أجواء الإبداع والخيال، ولكن رغبة في تهذيب الطبع وإقناع العقل وتربية المشاعر، فما زالت النفس البشرية تحب بفطرتها الألحان والأنغام والألوان والصور فهي تتأثر بها أكثر من تأثرها بالنثر العلمي الجاف والتوجيه المباشر. ولعل الشيخ الحافظ كان يفكر

في هٰذا وهو يحلي مؤلفاته بمنتخبات من الشعر يختارها مما يرويه لغيره أو ينظمها للمناسبات المختلفة، وقلما نجد مجلساً من مجالسه إلا وقد ختمه ببعض الشعر مما يناسب موضوع المجلس، وقد لاحظ الذهبي هٰذا إذ قال: «ولابن عساكر شعر حسن يمليه عقيب كثير من مجالسه»[١] وقد نقلنا نموذجاً لهٰذا الشعر قصيدة أنشدها في آخر المجالس التي عقدها للكلام علىٰ صفات الله عز وجل[٢] وهي لا تمتاز بشيء عن شعر الفقهاء، ومن هٰذا النوع أيضاً قوله:

ألا إنَّ الحــديــثَ أجــلُّ علــمٍ	وأشــرفُــه ٱلأحــاديــث ٱلعــوالــي
وأنفــعُ كــلِّ نــوعٍ منــه عنــدي	وأحسنــه ٱلفــوائــد وٱلأمــالــي
فــإنــك لــن تــرىٰ للعلــم شيئــاً	يحققــه كــأفــواه ٱلــرجــالِ
فكــنْ يــا صــاحِ ذا حــرصٍ عليــه	وخــذهُ عــن ٱلــرجــال بــلا مَــلالِ
ولا تــأخــذه مــن صُحُــفٍ فتُــرمــىٰ	مــن ٱلتصحيــف بــٱلــداءِ ٱلعُضــالِ[٣]

ويبدو لنا نظمه أقرب إلىٰ روح الشعر في مقطعاته التي ينشدها أمام أصدقائه أو يرسلها إليهم في إخوانياته تعبيراً عن مشاعره التي أثارتها مناسبات خاصة، وربما تأنق في نظمه والتزم ما لا يلزم كما في الأبيات التالية التي أرسلها لابن السمعاني يعاتبه إذ لم ينفذ إليه كتاب دلائل النبوة كما كان وعده:

مــا خلــت حــاجــاتــي إليــك	وإن نــأت داري مضــاعــهْ
وأراك قــــد أهملتهــــا	وأضعتهــا كــل ٱلإضــاعــهْ

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٧٠ .

(٢) انظر ص٣٢ من هٰذه المقدمة . وقد أملىٰ ابن عساكر مئات المجالس فقد بعضها وحفظ كثير فيها في خزائن المكتبة الظاهرية بدمشق، وبعض هٰذه المجالس منشور في كتيبات خاصة بعد تحقيقه أو في مجلة مجمع دمشق .

(٣) الأبيات في خريدة القصر ١ : ٢٧٥ ووفيات الأعيان ٣ : ٣١٠، ومرآة الجنان ٣ : ٢٩٤، وسير أعلام النبلاء : ٢ : ٥٦٩، وشذرات الذهب ٤ : ٣٩٩ وغيرها .

أنسيتَ ثديَ مودة ... بيني وبينك وٱرتضاعه
ولقد عهدتك في الوفا ... ء أخا تميم لاقضاعه
وأراك بكراً ما تخا ... ف علىٰ ٱلصداقة وٱلبضاعه[1]

ويشبهه قوله:

وصاحب خان ما ٱستودعته وأتىٰ ... ما لا يليق بأرباب ٱلديانات
وأظهر ٱلسر مختاراً بلا سبب ... وذاك وٱلله من أوفىٰ ٱلجنايات
أما أتاه عن ٱلمختار في خبرٍ ... أن ٱلمجالس تغشىٰ بٱلأمانات[2]

وكما في هٰذه الأبيات التي أنشدها أمام ابن السمعاني أيضاً وهما بالمزة من أرض دمشق، ورويت عنه في أكثر الكتب التي ترجمت للشيخ الحافظ:

أيا نفسُ ويحَك جاءَ ٱلمشيبُ ... فماذا ٱلتَّصابي وماذا ٱلغَزَل
تولَّىٰ شبابي كأَنْ لم يكنْ ... وجاءَ مشيبي كأنْ لم يزلْ
كأني بنفسي علىٰ غرة ... وخطب ٱلمنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن أكون ... وما قدر ٱلله لي في ٱلأزل

وقد لاحظ بعض النقاد أن ما يستجاد من شعر الحافظ إنما هو حصيلة مطالعاته الكثيرة ومحفوظاته التي قوّت عنده ملكة النظم، فهٰذه الأبيات التي تناقلها مترجموه علىٰ أنها نموذج للجيد من شعره، قد ردوها إلىٰ شاعر آخر، فقال ابن خلكان: «ومن المنسوب إليه أيضاً. . وروىٰ الأبيات ثم قال: «وقد التزم فيها ما لا يلزم وهو الزاي قبل اللام. والبيت الثاني هو بيت علي بن جبلة

---

(١) الأبيات أو بعضها في خريدة القصر، شعراء الشام ١: ٢٧٥، ووفيات الأعيان ٣: ٣١٠، ومرآة الجنان ٣: ٣٩٤، ومعجم الأدباء ١٣: ٨٦، ومرآة الزمان ٨: ٢١٤ وطبقات الأدباء ٢: ٢٧١ والبداية والنهاية ١٢: ٢٩٤، والنجوم الزاهرة ٦: ٧٧.

(٢) الأبيات في خريدة القصر. قسم شعراء الشام ١: ٢٧٥.

المعروف بالعكوك، وهو قوله:

شبــــاب كـــأن لـــم يكـــن   وشيـــب كـــأن لـــم يـــزل

وليس بينهما إلا تغيير يسير كما تراه..»[1].

وعدّه ياقوت الحموي من الشعراء فترجم له في كتابه «معجم الأدباء» تيمناً بشهرته كما يبدو، وقال فيه: «وكان الحافظ أبو القاسم بن عساكر يقول شعراً ليس بالقوي، وسمعه تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسين الكندي النحوي اللغوي فقال: هٰذا شعر أضاع صاحبه فيه شيطانه»[2] فهو يكني بأنه بعيد عما نجده عند الشعراء من غزل وهوىً يطلق عنان الخيال ويذكي الشاعرية، وإن كان يعبّر علىٰ نحوٍ من الأنحاء عن مشاعر قائله كهٰذه الأبيات التي قالها في نيسابور:

لا قـدَّسَ ٱللهُ نيسـابـور مـن بلـدٍ   ما فيه من صاحبٍ يُسْلِي ولا سَكنِ

لولا ٱلجحيم ٱلذي في ٱلقلب من حُرَقٍ   لفـرقـة ٱلأهـل وٱلأحبـاب وٱلـوطـن

لمتُّ من شدة ٱلبرد ٱلذي ظهرت   آثـار شـدتـه فـي ظـاهـر ٱلبـدن

يا قوم دوموا علىٰ عهد ٱلهوىٰ وثقوا   أني علىٰ ٱلعهد لم أغدرْ ولم أخُنِ

ولا تـدبَـرت عيشـي بعـدَ بُعـدكـمُ   إلا تمثلـت بيتـاً قيـل مـن زمـن

فـإن أعـشْ فلعـلَّ ٱللهَ يجمعنـا   وإن أمُـتْ فقتيـلُ ٱلهـمِّ والحَـزَنِ[3]

وربما وصل شعره إلىٰ حد الجودة حين يتحدث بحرارة عاطفة وصدق انفعال كالذي رأيناه في القصيدة التي حث فيها نور الدين علىٰ تحرير بيت المقدس[4]، وكالقصيدة التي ختم بها كتابه تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ

---

(١) وفيات الأعيان ٣: ٣١٠.

(٢) معجم الأدباء ١٣: ٨٦.

(٣) معجم الأدباء ١٣: ٧٨، والوافي بالوفيات ١٩: ١٨٧/أ (مخطوط).

(٤) انظر الصفحة ٣٤ من هٰذه المقدمة.

أبي الحسن الأشعري، وهي تقع في اثنين وثلاثين بيتاً يرد فيها علىٰ من لامه وتوعده لدفاعه عن مذهب الأشعري ويفتخر بعلمه ويصف رحلتيه في سبيله ويعتز بعقيدته مادحاً الأشعري ومن سار علىٰ نهجه.. اخترت منها هٰذه الأبيات:

يا من توعدَّني لفرطِ جهالةٍ	أكففْ وعيدَك لي فلستُ بخائفِ
لو كنتَ تعرفُني لما خوَّفتني	فذرِ الوعيدَ فلست لي بالعارفِ
ما لنتُ قطُّ لغامز متغشمرٍ[1]	كلا ولا لاينتُ حيفَ الحائفِ
فأنا الشجىٰ في حلقِ كلِّ منافقٍ	وأنا القذىٰ في عين كل مخالفِ
وأنا الذي سافرت في طلب الهدىٰ	سفرين بين فدافد وتنائف
وأنا الذي طوَّفت غير مدينة	من أصبهان إلىٰ حدود الطائف
فعلامَ تلحاني لحاك إلهنا	في مدح من أعيا مديح الواصف
هٰذا كتابٌ فيه نعتُ موحِّدٍ	لله ذي علمٍ به ومعارفِ
سيف علىٰ أعداء دين محمد	من جاحدٍ أو مُمْترٍ أو واقف
أصحابه مثل النجوم وحزبه	أهل العلوم ومرشدو المتجانف
فهمُ أمان الناس في أديانهم	في الخافقين وعصمة للخائف
يا رب إرحم شيخنا وإمامنا	واكشف حقيقة قدره للكاشف
واهتك بحولك ستر من يغتابه	من حاسد أو عاتب أو قاذف[2]

ولو قصد أحد إلىٰ جمع أشعار الشيخ من مصنفاته المختلفة لوجد فيها وفرة لكن ما سقناه منه كاف في الدلالة علىٰ أغراضها وأساليبها.

---

(١) الغامز: العائب، والمتغشمر: من الغشمرة وهي التهضم والظلم وركوب الإنسان رأسه من غير تثبت في الحق والباطل لا يبالي ما صنع (اللسان والتاج).

(٢) تبيين كذب المفتري ٤٣١ ـ ٤٣٢.

٧ـ وفاته ورثاؤه:

سنة إحدىٰ وسبعين وخمسمائة، وبعد حياة حافلة بالعمل والجد، يزينها التقوىٰ والزهد، توفي مؤرخ دمشق الحافظ ابن عساكر مستوجباً حسن الثناء، مصحوباً بدمع الناس والسماء[١]، بين العشاءين ليلة الأحد[٢] ـ وقيل ليلة الاثنين[٣] ـ حادي عشر رجب [يوافق ٢٥/ ١/ ١١٧٦م]، وقد بلغ من العمر اثنتين وسبعين سنة وستة أشهر وعشرة أيام.

وكانت جنازته جنازة مشهودة حضرها جمع غفير من أهالي دمشق وأعيانها وصلي عليها بجامع دمشق وبميدان الحصا[٤]، وكان إمام الصلاة عليه بالميدان قطب الدين النيسابوري[٥] وحضرها صلاح الدين الأيوبي سلطان الشام ومصر آنذاك ومحرر القدس بعدُ من الصليبيين.. ودفن عند أبيه وأهله بمقبرة باب الصغير خارج الحظيرة التي فيها قبر معاوية وغيره من الصحابة رضي الله عنهم من جهة الشرق[٦] «ورئي له منامات حسنة، ورثي

---

(١) قال العماد الأصبهاني الكاتب: «وكان الغيث قد احتبس في هٰذه السنة، ودرَّ وسحَّ عند ارتفاع نعشه، فكأن السماء بكت عليه بدمع وبله وطشّه، وبلت الأرض برشّه». الخريدة ١: ٢٧٧

(٢) قاله العماد في الخريدة.

(٣) قاله ابن خلكان في وفيات الأعيان، وما يليه في تحديد عمر الشيخ من مرآة الزمان.

(٤) ذكر الصلاة عليه بالجامع سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان، وذكرت الصلاة عليه بالميدان في سائر مراجع ترجمته.

(٥) هو مسعود بن محمَّد بن مسعود الفقيه الشافعي ولد بمرو ٥٠٥ ودخل دمشق ٥٤٠ وأقام بها واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي.. توفي بدمشق سنة ٥٧٨هـ. الأعلام للزركلي ٧: ٢٢٠، وميدان الحصا هو حي الميدان المعروف جنوب دمشق.

(٦) حاول بعض المعاصرين تحديد قبر ابن عساكر فلم يجاوز حد الترجيح في قبر واقع في الشرق القبلي لمدفن معاوية كتب عليه بقلم كوفي طامس ما يشبه اسم الحافظ وسنة وفاته. انظر آخر مقدمة كتاب تبيين كذب المفتري بتحقيق حسام الدين القدسي. ولعل=

بقصائد، وقبره يزار»[1].

رثاه عدد من شعراء الشام منهم الشاعر الفقيه الشهيد الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري الذي نظم في رثائه قصيدة طويلة أنشدها بجامع دمشق سنة إحدىٰ وسبعين وخمسمائة، روىٰ منها ياقوت الحموي في معجم الأدباء[2] أربعة وأربعين بيتاً أشاد فيها بعلمه وأخلاقه وتقواه وورعه ووصف حرقته وحزن الناس جميعاً عليه ومنها قوله:

ذَرَا ٱلسعيَ في نيل ٱلعلا وٱلفضائلِ ... مضىٰ من إليه كان شَدُّ ٱلرواحلِ
فقولا لساري ٱلبرقِ إني مُعينُه ... بنارِ أسىٰ أو سُحْبِ دمع هواطلِ
وما كان إلا ٱلبحر غار، ومن يَرِد ... سواحله لم يلق غير ٱلجداولِ
فقد فاتكم نور ٱلهدىٰ بوفاته ... ونور ٱلتقىٰ منه ونجح ٱلوسائلِ
فيا لمصابٍ عَمَّ سنةَ أحمدٍ ... وأحرمَ منها كلَّ راوٍ وناقلِ
خلا ٱلشام من خير خلت كل بلدة ... بها من نظيرٍ للإمام مماثلِ
خلت سنة ٱلمختارِ من ذَبِّ ناصر ... فأيسرُ ما لاقته بدعةُ خاملِ
أرىٰ ٱلأجرَ في نَوْحي عليه ولا أرىٰ ... سوىٰ ٱلإثمِ في نوحِ ٱلبواكي ٱلثواكلِ
وليس ٱلذي يبكي إماماً لدينه ... كباكٍ لدنياه علىٰ فقدِ راحلِ
طوىٰ ٱلموتُ منهُ ٱلعلم وٱلزهد وٱلنهىٰ ... وكسبَ ٱلمعالي وٱجتنابَ ٱلرذائلِ
بماذا أُعزِّي ٱلمسلمين ولا أرىٰ ... عزاءً سوىٰ من قد مضىٰ من أفاضلِ
عليكَ سلامُ اللهِ ما ٱنتفعَ ٱلورىٰ ... بعلمِك وٱستعلىٰ علىٰ ٱلمتطاولِ

= السبب في تعذر معرفة القبر أنه كان لآل عساكر يتوارثونه فقد دفن الحافظ علىٰ أبيه ودفن ولده القاسم عليه وكان آل عساكر أهل سنة يكرهون البدع فلا يفخمون قبورهم ولا يزينونها بالشواهد الضخمة التي تبقي الكتابة علىٰ مر الأيام.

(١) نقل هٰذا الكلام عن ولده القاسم الذهبيُّ في تذكرة الحفاظ ٤ : ١٣٣٤.

(٢) معجم الأدباء: ١٠ : ٤٨ ـ ٥٥. وانظر ترجمة الشاعر الذي استشهد في مرج عكا سنة ٥٨٥ في المرجع نفسه.

ومِمن رثاه أيضاً شاعر دمشق فتيان بن علي الأسدي الشاغوري فقد نظم فيه قصيدة طويلة رواها العماد الكاتب الأصبهاني في الخريدة في أربعة وأربعين بيتاً وقال: «وهٰذه القصيدة مشتملة علىٰ حقيقته وطريقته ووفائه ووفاته»(1)، ومنها الأبيات التالية:

أيُّ ركـن وهـىٰ مـن ٱلعلمـاءِ ... أيُّ نجـمٍ هـوىٰ مـن ٱلعليـاءِ

إنَّ رزءَ ٱلإسـلامِ بـٱلحـافـظِ ٱلعـا ... لـمِ أمسـىٰ مـن أعظـمِ ٱلأرزاءِ

أقفـرت بعـده ربـوعُ ٱلأحـاديـ ... ـثِ وأَقْـوَتْ معـالـمُ ٱلأنبـاءِ

كـان بحـراً مَـنْ عـامَ فيـه حبـاه ... بـٱلـلآلـي ٱلأنيقـةِ ٱلـلألاءِ

كـان فـي دينـه قـويـاً قـويمـاً ... ثـابتـاً فـي ٱلضـراء وٱلسـراءِ

قـد أرانـا سـريـرُه كيـف كـانـت ... قبـلُ تجلـى أَسِـرَّةُ ٱلأنبيـاءِ

سيَّـرتْ نعشَـه ٱلملـوكُ وأمـلا ... كُ ٱلسمـاواتِ بـٱلبكـا وٱلـدعـاء

وٱمتـرىٰ حـزنُـه مـدامـعَ أهـل ٱلأ ... رضِ حتـىٰ جـرتْ دمـوعُ ٱلسمـاءِ

علمـاءُ ٱلبـلادِ حلَّـت حُبـاهـا ... لـك يـا مـن عَـمَّ ٱلـورىٰ بـٱلحِبـاءِ

أنـت أولـىٰ بـأن تـرثيـك حتـىٰ ... يُبعـث ٱلخلـقُ ٱلسـنُ ٱلشعـراءِ

فعليـك ٱلسـلام مـا لاحَ وجـهُ ... ٱلصبـح مـن تحـتِ طُـرَّةٍ سـوداءِ

وسقـىٰ ٱلتـربـةَ ٱلتـي غبـتَ فيهـا ... كـلُّ جَـوْنٍ وديمـةٍ هطـلاءِ

* * *

(1) خريدة القصر: قسم شعراء الشام ١: ٢٧٨ ـ ٢٨٠ وديوان فتيان الشاغوري ٦١٢-٦١٥.

جـ - الكتاب

١ - كتب الشيوخ:

حظي الحديث الشريف ثاني مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم بعناية فائقة من علماء الإسلام، فقد صنفوا فيه وله ما لا يحصىٰ من المصنفات التي تناولته من جميع جوانبه جمعاً وفقهاً ودراسة وتمحيصاً ونقداً.. فمنها ما يبحث في مصطلحاته، ومنه ما يدرس علله، ومنها ما يهتم بتوثيق أسانيده والكلام علىٰ رجالها وهو ما سمي بعدُ بعلم الرجال..

وقد تعددت أشكال الكتب المؤلفة في هٰذا المضمار، فمن المصنفين من تكلم في الرجال ناظراً إلىٰ ضعفهم أو قوتهم موثقاً أو مضعفاً، فصنف في الثقاة والمتروكين والضعفاء والمجروحين، ومنهم من تكلم فيهم مراعياً الزمن، فصنف في الصحابة والتابعين والطبقات والوفيات.. ومنهم من راعىٰ المكان، فصنف في رواة بلد معين، ومنهم من اهتم بأعلامهم فصنف في الأسماء المفردة، والكنىٰ، والألقاب، والمتشابه.. وغير ذٰلكَ من أساليب التبويب والتأليف وأشكال البحث والدراسة، فكثرت المصنفات في علم الرجال كثرة وصفها الصفدي بقوله: «وأما كتب المحدثين في معرفة الصحابة - رضي الله عنهم - وكتب الجرح والتعديل والأنساب ومعاجم المحدثين ومشيخات الحفاظ والرواة فإنها شيء لا يحصره حد، ولا يقصره عد، ولا يستقصيه ضبط، ولا يستدينه ربط..»[١].

وكتب الشيوخ صنف هام من أصناف التأليف في علم الرجال لأن المؤلف

(١) الوافي بالوفيات ١: ٥٥.

حين يذكر شيوخه فهو إنما يتحدث عمن عاصره وعرفه وخبر علمه، وقد يصف لنا من أحواله ما رآه بعينه وسمعه بأذنه وخبره بفهمه، وقد يسجل كل ما يعرفه عنه أو ما يلاحظه عليه، ويبين طريقة نقله عن شيخه بدقة فيقول سمعت أو قرأت أو قرىء عليه وأنا أسمع أو أجازني أو كتب إلي. . محدداً في كثير من الأحيان مكان اللقاء وزمانه جامعاً من المعلومات ما يجعل هٰذا النوع من التأليف مرجعاً هاماً لأجيال الباحثين والمؤرخين التالية، وقد نجد فيها علاوة علىٰ الحديث وسير الرجال معلومات تاريخية واجتماعية وجغرافية وسياسية وأدبية وعلمية ليست في مراجع أخرىٰ.

وقد حرص أكثر المحدثين الكبار والحفاظ علىٰ تصنيف كتب لشيوخهم وربما كان لأحدهم عدة معجمات أو مشيخات بحسب الأمكنة التي لقي شيوخه فيها كأبي طاهر السِّلَفي الذي ألف معجماً لشيوخه في بغداد(١)، وآخر لشيوخه في أصبهان(٢)، وثالثاً سماه معجم السفر لشيوخه في المدن الأخرىٰ(٣)، وكابن النجار الذي وضع معجماً لشيوخه ببغداد وآخر لغيرهم(٤)، وكالحافظ ابن عساكر مصنف هٰذا المعجم الذي بين أيدينا، وقد ذكر فيه شيوخه من الرجال، وصنف معجماً آخر للنسوان(٥)، وكالإمام شمس الدين الذهبي الذي صنف ثلاثة معجمات: كبير ومتوسط وصغير. . .(٦) وقد يخرج المحدّث معجماً

---

(١) عرف باسم «المشيخة البغدادية» قيل إنها خمسة وثلاثون جزءاً، وقيل: جمع فيها فوائد لا تحصى وجملتها تزيد على مئة جزء» انظر مقدمة كتاب سؤالات الحافظ السلفي ص ١٤.

(٢) قال عنه الذهبي إنه مجلد كبير وسماه أيضاً «السفينة الأصبهانية» المرجع السابق ص ١٤.

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٦.

(٤) طبقات السبكي ٥: ٤١، والنجوم الزاهرة ٦: ٣٥٥، وشذرات الذهب ٥: ٢٢٦.

(٥) معجم الأدباء ١٣: ٧٧، وسير أعلام النبلاء ٢٠: ٥٥٦، وكشف الظنون ص١٧٦٧.

(٦) في دار الكتب المصرية نسخة من المعجم الكبير رقمها (٦٥ حديث)، ومن الصغير نسخة في الظاهرية بدمشق (مجموع ١٢).

لشيوخ غيره كفعل الحافظ ابن عساكر في «المعجم المشتمل علىٰ ذكر أسماء شيوخ النبل»[1] الذي ذكر فيه شيوخ أصحاب السنن والصحيحين، كما خرج لشيخه أبي غالب بن البناء إحدىٰ عشرة مشيخة، ومشيخة لشيخه أبي المعالي عبد الله بن أحمد الحلواني الأصولي في جزأين[2]، وأبو سعد السمعاني في المعجم الذي خرجه لابنه عبد الرحيم[3] ومحمَّدبن عبد العظيم المنذري في مشيخة النعَّال البغدادي[4]. . .

وتختلف أشكال العرض المتبعة في كتب الشيوخ؛ فمنها المعجمات؛ وهي التي ترتب فيها أسماء الشيوخ علىٰ طريقة ترتيب المعجمات، بحسب الحروف التي تبدأ بها هٰذه الأسماء، فلا يقدم أحدهم لشرف مكانته أو سعة حفظه أو كثرة المروي عنه أو تقدم سنه، مع تجاوزات بسيطة نجدها أحياناً في تقديم من اسمه أحمد في حرف الألف ومن اسمه محمَّد في حرف الميم ومن اسمه عبد الله في حرف العين. . ومنها ما يرتب ذكر الشيوخ مراعياً الجوانب التي ذكرناها أو غيرها، كأن يرتبهم حسب زمن لقائه بهم وأخذه عنهم، أو حسب البلدان التي لقيهم فيها، وقد يرتبهم بحسب تواريخ وفياتهم إلىٰ غير ذٰلكَ من طرق العرض والتصنيف.

ويختلف المضمون في هٰذه الكتب أيضاً، فقد يذكر المؤلفُ الشيخَ ويترجمه ترجمة كاملة، فيذكر اسمه ونسبه وتاريخ مولده ويعدد شيوخه وأبرز تلامذته ويصف خَلْقه وخُلُقه وعلمه وروايته، كما فعل السمعاني في التحبير مع تفاوت ترجماته تفصيلاً وإيجازاً بحسب أهمية الشيخ ومعرفته له. . وقد يوجز المصنف في الترجمة ويتوسع في الرواية، أو يفصل في الترجمة ويختصر في الرواية

---

(١) حققته الأخت سكينة الشهابي، وطبع بدار الفكر بدمشق سنة ١٩٨٠.
(٢) معجم الأدباء ١٣ : ٨١ ـ ٨٢.
(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٣٨١.
(٤) حققه الدكتور ناجي معروف وبشار عواد معروف، ونشره المجمع العلمي العراقي سنة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

وهٰذا هو الغالب، وقد يكتفي بذكر اسم الشيخ ونموذج واحد لما رواه عنه، ومن هٰذا النوع الأخير معجم شيوخ ابن عساكر الذي بين يدينا[١].

٢ـ توثيق الكتاب وبيان زمن تأليفه:

ذُكر معجم شيوخ ابن عساكر في المصادر الأصلية التي ترجمت للحافظ الكبير وعدَّدتْ آثاره ومؤلفاته ثم تناقلتها المراجع من بعدُ، فمن ذٰلكَ ما نقله ياقوت الحموي من الجزء الذي عمله ولد المصنف أبو محمَّدالقاسم بن علي في أخبار والده وهو قوله: «وعدة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ، ومن النساء بضع وثمانون امرأة. . » ثم قوله إذ عدد مصنفاته: «كتاب المعجم لمن سمع منه أو أجاز له، اثنا عشر جزءاً»[٢].

وقال الخوارزمي في ترجمته لابن عساكر وهو يذكر أبرز مصنفاته: «والمعجم لأسماء شيوخه الذين سمع منهم أو أجازوا له، وعدتهم ألف وثلاثمائة شيخ»[٣].

أما شمس الدين الذهبي فقد ذكره في أكثر مصنفاته، فقال في سير أعلام النبلاء إذ تكلم علىٰ شيوخ الحافظ الكبير: «وعدد شيوخه الذي في معجمه ألف وثلاثمائة شيخ بالسماع وستة وأربعون شيخاً أنشدوه، وعن مئتين وتسعين شيخاً بالإجازة، الكل في معجمه، وبضع وثمانون امرأة لهن معجم صغير سمعناه»[٤] ثمَّ نقل عن ولده القاسم قوله: «وصنف وجمع فأحسن. . فمن ذٰلكَ تاريخه. . والمعجم في اثني عشر جزءاً. . »[٥] ثم نقل عن أبي سعد السمعاني

---

(١) انظر بحثاً وافياً مفصلاً عن المشيخات عامة في مقدمة تحقيق مشيخة النعال البغدادي تخريج محمَّد بن عبد العظيم المنذري.
(٢) معجم الأدباء ١٣ : ٧٧.
(٣) جامع مسانيد الإمام الأعظم ٢٠/ ٥٣٩.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٥٦.
(٥) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٥٨/ ٥٥٩.

صاحب الحافظ ابن عساكر قولَه: «دخل نيسابور قبلي بشهر، سمعت منه، وسمع مني، وسمعت منه معجمه، وحصل لي بدمشق نسخة به، وكان قد شرع في التاريخ الكبير لدمشق»(١).

وفي كتابه الآخر «تذكرة الحفاظ» ذكر مصنفاته فقال: «عمل تاريخ دمشق.. والمعجم مجلد»(٢) وكرر قول السمعاني «دخل نيسابور قبلي بشهر، وسمعت معجمه والمجالسة للدينوري وكان قد شرع في التاريخ الكبير لدمشق»(٣).

وذكر خليل بن أيبك الصفدي في ترجمته للحافظ ابن عساكر عدداً كبيراً من مصنفاته فكان منها: «كتاب المعجم لمن سمع منه وأجاز له اثنا عشر جزءاً»(٤).

وممن ذكره من المتأخرين ابن العماد الحنبلي إذ قال في ترجمته للشيخ الحافظ: «ومن تصانيفه المشهورة التاريخ الكبير.. معجم شيوخه أحد عشر جزءاً..»(٥).

ثم استفاض ذكره في الكتب الحديثة والمعاصرة كالموسوعات الإسلامية ودوائر المعارف وغيرها(٦) مما ترجم لابن عساكر وفهارس الكتب والمكتبات وفهارس المخطوطات الأصلية والمصورة وسنذكر بعضها في كلامنا التالي عند وصف النسخة المعتمدة في التحقيق.

أما زمن تأليف الكتاب فالراجح عندي أنه ألف قبل عودته للاستقرار في

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠: ٥٦٧.

(٢) تذكرة الحفاظ ٤: ١٣٢٩.

(٣) تذكرة الحفاظ ٤: ١٣٣٠.

(٤) الوافي بالوفيات ١٩: ١٨٤/ب (مخطوط).

(٥) شذرات الذهب ٤: ٢٣٩.

(٦) دائرة المعارف لفؤاد أفرام البستاني مج ٣: ٣٣٦ صنعة صلاح الدين المنجد ومعجم المؤرخين الدمشقيين، له (بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م)، ومقدمة المجلدة الأولىٰ من تاريخ دمشق لمحمَّد كرد علي، ومقدمة التحقيق للمجلدة نفسها للدكتور صلاح الدين المنجد.

دمشق والجلوس فيها للتحديث، أي قبل سنة ثلاث وثلاثين[1]، ودليلُنا علىٰ هٰذا ما نقلته المراجع من قول السمعاني إنه دخل نيسابور قبل الحافظ ابن عساكر بشهر وسمع منه معجمه كما سمع المجالسة للدينوري، ويضيف في رواية أخرىٰ أنه حصل نسخة لهٰذا المعجم عندما زار دمشق. . وإنما كان دخول السمعاني وابن عساكر نيسابور سنة تسع وعشرين[2].

ولكن هٰذا لا يمنع أن يكون الشيخ الحافظ قد أضاف إلىٰ معجم شيوخه بعض الإضافات غب عودته إلىٰ دمشق، فمن المعروف أنه كان يصنف كتبه وخاصة الطويل منها والمرتب ترتيب المعجمات علىٰ شكل مسودات وجذاذات ثم يبيضها أو يطلب إلىٰ ولده القاسم تبييضها كما فعل في تاريخ دمشق. . وقد حصل له بعض الشيوخ بالإجازة والمراسلة بعد انتهاء رحلتيه. .

وعلىٰ كل حال فهٰذا المعجم هو من مصنفات الشيخ الأولىٰ لأنه بطبيعته حصيلة مباشرة لمرحلة السماع والجمع والرحلة في طلب العلم.

٣ـ وصف النسخة الخطية المعتمدة:

الكتاب كما أسلفنا معروف في مصنفات الشيخ الحافظ، رآه بعض معاصريه وسمعوه عليهِ، وقالوا إنه مجلد يتألف من اثني عشر جزءاً حسب ما ذُكر في المراجع القديمة، وأحد عشر جزءاً حسب ما قال ابن العماد الحنبلي المتوفىٰ سنة ١٠٨٩ هـ، أما حاجي خليفة المتوفىٰ سنة ١٠٦٧ هـ فلم يذكره في «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» مع أنه ذكر «معجم النسوان» لابن عساكر. ثم ذكره إسماعيل باشا البغدادي في «هدية العارفين» دون تحديد لعدد أجزائه أو إشارة إلىٰ أنه رأىٰ نسخة منه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٥٦٥، وتذكرة الحفاظ ٤ : ١٣٣٣.

(٢) قال السمعاني في التحبير في ترجمة الحسن بن محمَّد بن مروان: «لقيته بنيسابور أول ما دخلتها سنة تسع وعشرين».

ويظهر من مراجعة فهارس المخطوطات العربية في العالم ما صنعه المستشرقون وما صنعه العرب أن الأصل الذي اعتمدناه في عملنا هو النسخة الوحيدة المعروفة في عصرنا، أصلها المخطوط محفوظ في استانبول تحت رقم (مدينة ٣٣٧)[١]. وفي معهد المخطوطات العربية صورة عنه وصفها الدكتور لطفي عبد البديع في فهرس المخطوطات المصورة في المعهد[٢]، وتكرر وصفها في القسم الثاني من فهرس المخطوطات أيضاً صنعة فؤاد السيد[٣]، وكلاهما يؤكد أن المحفوظ في خزانة المعهد هو صورة المخطوط نفسه.

وفي خزانة مجمع اللغة العربية بدمشق صورة لهٰذا المخطوط أتاح لي أستاذي الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع أن أستخدمها في عملي كله، كما وضع بين يدي (ميكرو فيلم) للمخطوطة ذاتها فأنا لا أنسىٰ له هٰذه المنة، وقد استعرضت الفيلم علىٰ الآلة القارئة وتأكدت أنه مطابق للمصور علىٰ الورق إلا أن هٰذا الأخير خال من صورة الورقة الأولىٰ فنقلت ما فيها من الفيلم مباشرة باستخدام الآلة القارئة، وفيما عدا ذٰلكَ فكل ما في الميكروفيلم موجود في الصورة الورقية وليس فيه زيادة عليها وقد حاولت الاستفادة منه في استدراك الخروم والمواضع المطموسة أو الناصلة من الكتاب فلم أستفد شيئاً لأنه مطابق تماماً للصورة المكبرة علىٰ الورق.

---

(١) ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ج ٦ : ٧٢ ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٧ م هٰذا الكتاب علىٰ أنه نبذ عن مشاهير الرجال وخاصة الشافعية وأن له ذيلاً هو كتاب الوهم لمحمَّد عبد الوهاب المقدسي المتوفىٰ عام ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) وهو محفوظ بخزانة مكتبة المتحف البريطاني (فهرس الكتب الشرقية رقم ٧٧٣٥) والحق أن هٰذا المخطوط ذيل لـ«المعجم المشتمل علىٰ ذكر أسماء شيوخ الأئمة النبل» لابن عساكر، وقد تكرر كلام بروكلمان السابق في دائرة المعارف الإسلامية (النسخة المعرَّبة، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م ص ٣٥٠). نبه علىٰ هٰذا الأستاذ مطاع الطرابيشي في كتاب ابن عساكر ص ٢٦٠.

(٢) الجزء ٢ (التاريخ) صفحة ٢٥٣.

(٣) في الصفحة ١٤٨.

تتألف هٰذه النسخة من معجم شيوخ ابن عساكر من ٢٥٠ ورقة قياس ٢٤×١٧ سم، في كل صفحة ٢٦ سطراً، وفي كل سطر نحو ١٥ كلمة كتبت بقلم تعليق من القرن السادس الهجري وعورضت بأصلها المكتوب بخط مصنفه سنة سبع وستمائة[١].

وكانت وقفاً علىٰ المدرسة المحمودية بالمدينة المنورة وقد مهرت بخاتمها وبجواره عبارة الوقف[٢]، ثم نقلت فيما بعد إلىٰ استانبول، ويبدو أن أوراقها الأخيرة انفرطت فأعيد شدها بترتيب مغلوط، وضرب علىٰ أرقام الصفحات القديمة، ووضعت أرقام حديثة تناسب الوضع الجديد، ولهٰذا قال واصفو النسخة في فهارس المخطوطات الحديثة إنها تنتهي بمن اسمه ناصر، والحق أنها تنتهي بمن اسمه ياقوت، والمخروم منها أقل من جزء[٣] لكننا خسرنا بضياعه معرفة اسم الناسخ وتحديد زمن النسخ وغير ذٰلكَ من المعلومات المفيدة التي تكتب عادة في آخر المخطوطات.

ووقع غلط آخر في ترتيب الأوراق يبدو أنه قديم وذٰلكَ أن ورقتين تحملان رقم ١٥ بنفس القلم القديم الذي كتبت به أرقام الأوراق في سائر المخطوط، وإحداهما مؤخرة عن حاق موضعها وقد خلت من العناوين التي التُزِمت في الكتاب عند بدء كل رواية، إذ يثبت في هامشها عنوان لموضوع الرواية[٤].

وفي حشو المخطوطة خرم آخر صغير فقدت به الرواية عن شيوخ أسماؤهم تبدأ بحرف الخاء بين خذاداذ والخضر، وسببه فيما أرىٰ التصاق ورقتين من الأصل، فبعد وجه الورقة ٦٠ نجد قفا ورقة ما فيها ليس تتمة لما قبله لكنه

---

(١) انظر فهرس المقابلات.

(٢) علىٰ الورقة ١٥/أ مكرر عند الرواية عن أحمد بن الغافر بن إسماعيل.

(٣) نص علىٰ نهاية الجزء الحادي عشر من الأصل في الورقة ٢٤٤، والتجزئة تظهر عادة كل ما يقرب من عشرين ورقة من النسخة، وأظن أن هٰذا الخرم قديم.

(٤) انظر الصفحتين ٥٦ و ٩٠ من المطبوع.

صحيح الارتباط بالذي علىٰ الصفحة التالية التي لا تحمل رقماً ، ويليها وجه الورقة ٦٢ ، ومعنىٰ هٰذا أن المفقود هو قفا الورقة ٦٠ ووجه الورقة ٦١ [١] .

أما بداية النسخة فهي شبه كاملة وغلافها جديد فيما يبدو كُتبت عليه أبيات شعر متفرقة وعبارات تمليك حديثة تاريخ أولها سنة ١٠٩٥هـ وآخرها سنة ١٢١٤ هـ. ثم على وجه الورقة الأولى كتب اسم الكتاب واسم مصنفه وطريق روايته وعدد من الإجازات والتملكات بعضها واضح وبعضها مطموس أو ناصل، وقد اهترأت زاوية الورقة العليا، وظل سند الرواية واضحاً يثبت أن نسخة المعجم برواية أبي الوحش عبد الرحمن بن أبي منصور المقدسي [٢] ، وأبي يعلىٰ حمزة بن إبراهيم الجوهري تلميذي الحافظ ابن عساكر، أعطيا سماعاً بها لولدَيْ زينِ الأُمناء ابن أخي المصنف [٣] وهما: تاج الدين أبو الحسن عبد الوهاب الذي درَّس بالنورية بعد والده [٤]، وركن الدين أبو علي عبد اللطيف.

ومالك النسخة الأول هو رضي الدين أبو عبد الله محمَّد ابن الفقيه أبي بكر عبد الله بن خليل الذي قرأها وأخذ الإجازة بها من تاج الدين أبي الحسن عبد الوهاب بن الحسن [٥] .

---

(١) انظر الصفحتين ٢٢٣ و ٢٢٤ من المطبوع.

(٢) ذكره ابن نقطة في الاستدراك، وابن ناصر الدين في التوضيح ٩ : ١٧٧ ، وهو كاتب السماع الأول لتاريخ دمشق ومعه في السماع نفسه أبو يعلىٰ حمزة بن إبراهيم الجوهري انظر المجلدة الأولى من تاريخ دمشق بتحقيق المنجد ص ٦٢٧ .

(٣) سبق التعريف به وبيان موارد ترجمته في الصفحة (38) من هٰذه المقدمة.

(٤) قاله النعيمي في الدارس ١ : ١٠٥ ، وذكر الذهبي في السير ٢١ : ٤٠٩ أنه ممن حدث عن القاسم ولد المصنف، وانظر العبر ٥ : ٢٦٠ ، وفي الشذرات ٧: ٥٢٤ ط. ١٩٩١ تحقيق الأرناؤوط أنه سمع الكثير من الخشوعي وطبقته، وجاور قليلاً ثم توفي بمكة سنة ٦٦٠ هـ.

(٥) رأيته مكتوباً بوضوح علىٰ وجه الورقة الأولى.

النسخة إذن شديدة الالتصاق بآل عساكر سمعوها وقرؤها وقرئت عليهم . .
وقد نقلت من الأصل الذي كتبه الحافظ ابن عساكر بخطه وعليه بعض الإضافات بخط ولده القاسم[1]، وعورضت بأصلها ثلاث مرات، وكتب بيان بالمقابلات عند انتهاء كل جزء من أجزاء الأصل، وفي حواشيها كتابات كثيرة بخطوط مختلفة وفيما يلي بيان لها مع محاولة التمييز بين كتابها:

١ـ أسماء شيوخ سبقت بكلمة أخبرنا أو حدثنا لكن لا رواية عنهم، وهؤلاء هم الشيوخ الذين كتب ابن عساكر أسماءهم رجاء تذكر بعض ما رواه عنهم كما قال في المقدمة[2] وهي مكتوبة بخط مغاير لخط متن الكتاب، وقد أدرجتُ هٰذه الأسماء في الرقم المتسلسل للشيوخ.

٢ـ بعض الإصلاحات لأغلاط النسْخ من قفز أو تحريف أو غموض وغير ذٰلكَ مما يكون عادة حصيلة القراءات المتكررة والمعارضات بأصل المصنف، وهو كثير في نسختنا.

٣ـ مقابلات عند نهاية كل جزء من أجزاء الأصل، وإحصاء لعدد الشيوخ في نهايات الأجزاء الثلاثة الأولىٰ فقط، فكُتب في نهاية الجزء الأول: «قُيِّد سبقه ثمانون شيخاً سماعاً واثنان وعشرون إجازة واثنان أناشيد»[3] وفي نهاية الجزء الثاني: «فيه مئة وستة شيوخ سماعاً وتسعة عشر إجازة وثلاثة أناشيد»[4] وفي نهاية الثالث: «فيه مئة وأحد عشر سماعاً، وستة وعشرون إجازة وأربعة أناشيد» [5]

---

(١) ذيلت بعض الإضافات بتوقيعه (ق) مثل الرواية عن الشيخ أحمد بن الفضل بن أبي الطيب الورقة ١٣/أ صفحة المطبوع ٨٠ ورقم الرواية ٨٠، والملحق بالرواية ٢٦٨ الورقة ٤٢/أ صفحة المطبوع ٢٣٥، وفي الرواية ١٢٧٧: «ملحق بخط الحافظ أبي محمَّد: أجاز أبو جعفر.. لوالدي رحمَهُ الله.. الخ» انظر ص ٩٩٨ من المطبوع، الورقة ٢٠٣/أ.

(٢) انظر الصفحة ٨ من المطبوع.

(٣) الورقة ١٧/ب، صفحة ١٠٤، هامش الرواية رقم ١١٠

(٤) الورقة٣٧/أ، صفحة ٢٠٨، الرواية ٢٣٨.

(٥) الورقة٥٩/أ، صفحة ٣١٨، الرواية ٣٧٩.

وهٰذا الإحصاء لا يشمل الشيوخ الذين كتبت أسماؤهم في الحواشي بلا رواية.

وغالباً ما تكتب المقابلات في الزاوية السفلىٰ للورقة، وربما وضع المصور أنامله عليها لتثبيت النسخة بالوضع المناسب للتصوير فغطّىٰ بعض المكتوب، وهو على الغالب مما لا يصعب تخمينه بالمقارنة والاستنتاج. ومن نماذج هٰذه المقابلات ما كتب في نهاية الجزء الأول وهو: «قوبل بأصلي بخط المصنف بقراءة الفقيه أبي البقاء خالد بالحادي عشر من ذي القعدة... ؟»[1] ومنها: «قوبل بأصلي بخط مصنفه رحمه الله، وبلغ سماعاً ومقابلة مرة ثانية.. ؟ وقوبلت مرة ثالثة بأصل الحافظ.. ؟»[2]، ومنها عند نهاية الجزء الرابع: «قوبل بنسخة بخط المصنف رحمه الله حادي عشر ذي القعدة سنة سبع وستمائة»[3].

٤ـ تعليقات وإضافات؛ بعضها يتعلق بالشيوخ كأن تذكر سنة وفاة أحدهم أو تاريخ لقائه، وبعضها يبين أن لصاحب التعليق سماعاً منه أو إجازة، فمن أمثلتها ما كتب بهامش الرواية عن بهرام بن بهرام بن فارس أبي الشجاع الفارسي، وهو: «مات بهرام ليلة الخميس سادس عشر المحرم سنة عشرين وخمسمائة»[4]، وما كتب بهامش الرواية عن الشيخ ناصر بن عبد الرحمن بن محمّدبن عبد الله أبي عبد الله النجار، وهو: «لي منه إجازة ولإخوتي في اليوم الأول من غرة شوال سنة خمسين وخمسمائة، ووفاته غرة ذي قعدة أو سلخ شوال سنة خمسين وخمسمائة»[5].

٥ـ مجموعات بلاغات تقتصر غالباً علىٰ كلمة «بلغ» ظهر أولها في هامش

---

(١) الورقة ١٧/ب، صفحة ١٠٤، الرواية ١١٠

(٢) الورقة ٣٩/ب، الصفحة ٢٢٧، الرواية ٢٥٨

(٣) الورقة ٨٣/أ، الصفحة ٤٣٢، الرواية ٥١٩

(٤) الورقة ٣٥/أ، الصفحة ١٩٦، الرواية ٢٢٥

(٥) الورقة ٢٤١/أ صفحة المطبوع ١١٨٠، رقم الرواية ١٥٤١

الرواية عن أحمد بن عبد العزيز بن محمَّد. . . أبي الطيب السلمي المقدسي. .»[١]، وتضاف إليها في حالات نادرة كلمات أخرىٰ مثل: «بلغ السماع والعرض»[٢]، وقد كثرت هٰذه البلاغات شيئاً فشيئاً وانتظمت نوعاً ما، وكان آخرها «بلغ العرض» وذٰلكَ قبل نهاية النسخة بثلاث ورقات[٣].

وهٰذه الأنواع الخمسة من كتابات الهوامش بدت لي بخط كاتب واحد هو غير كاتب متن النسخة وملحقات القاسم ولد المصنف، وقد بذلت جهداً كبيراً في تتبعها وفك خطها ومحاولة التعرف علىٰ كاتبها لكنني لم أظفر بدليل قاطع، ولعل اسمه كان مكتوباً فيما خرم من نهاية الأصل كما جرت بهٰذا عادة النساخ والقارئين والمسمعين والمجيزين، وأسترجح أنه بدل بن أبي المعمر أحد كتاب السماعات في تاريخ مدينة دمشق[٤].

٦ـ بلاغات قراءات متعددة رصدت منها مجموعة راتبة كاملة بدار الحديث الصالحية والتربة الصالحية[٥]، وأول ما وجدته منها: «بلغت قراءة في الثاني بدار الحديث الصالحية»[٦]. وآخره: «بلغت قراءة في الثامن والتسعين بالتربة الصالحية»[٧].

وهناك مجموعة أخرىٰ بدأت في الورقة ٥/ب بعبارة «بلغ في الثاني ولله

---

(١) الورقة ١٥/أ مكرر، صفحة ٥٦، الرواية ٥١
(٢) الورقة ١٩٣/أ، الصفحة ٩٥٦، الرواية ١٢١٩
(٣) الورقة ٢٤٧/أ، الصفحة ١٢١٩، الرواية ١٥٩٢
(٤) انظر التعليق رقم (٣) في الصفحة ٣٧٢
(٥) قال النعيمي: «المدرسة الصالحية بتربة أم الصالح الملك غربي الطيبة والجوهرية الحنفية وقبلي الشامية الجوانية بشرق. قال ابن كثير في سنة ثمان وأربعين وستمائة: الصالح أبو الجيش إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر. . كان عادلاً. . عدم بالديار المصرية سنة ثمان وأربعين وستمائة. . وهو واقف التربة والمدرسة ودار الحديث والإقراء بدمشق. .» الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٣١٦
(٦) الورقة ١٠/أ، الصفحة ٤٢، الرواية ٣٥
(٧) الورقة ٢٤٩/ب، الصفحة ١٢٣٠، الرواية ١٦١٢

الحمد والمنة»[١] وظلت راتبة متسلسلة حتىٰ الورقة ٥٥/أ وكتب بهامشها: «بلغت قراءة في الخامس والعشرين»[٢].

ثم كتب في الورقة ٥٧/أ «بلغت قراءة في السادس عشر ولله الحمد والمنة»[٣] واستمرت بهٰذا التسلسل الجديد حتىٰ نهاية النسخة فكان آخرها «بلغت قراءة في الثالث والتسعين ولله الحمد»[٤] فغلب علىٰ ظني أن هٰذه البلاغات تعود إلىٰ عرضة واحدة حدث وهم في ترقيمها، وقد تكون عرضتين متداخلتين أتمت إحداهما الأخرىٰ. وذكر في بعضها أن القراءة تمت بدار السنة[٥] أو النورية وهما واحد على الأرجح[٦].

وفي الهوامش أيضاً مجموعة بلاغات بزاوية ابن عروة[٧]. أولها: «بلغ في الأول ولله الحمد بزاوية ابن عروة»[٨]، وآخرها «بلغت قراءة في الثاني والثلاثين بزاوية ابن عروة علىٰ الشيخ أبي الحسن تاج الدين والحمد لله رب العالمين»[٩].

---

(١) الورقة ٥/ب، الصفحة ٣١، الرواية ٢١

(٢) الورقة ٥٥/أ، الصفحة ٢٩٩، الرواية ٣٥٢

(٣) الورقة ٥٧/أ، الصفحة ٣٠٩، الرواية ٣٦٧

(٤) الورقة ٢٤٩/ب الصفحة ١٢٢٩، الرواية ١٦١١

(٥) الورقة ١٠٤/أ، الصفحة ٥٢٥، الرواية ٦٤٥

(٦) الورقة ١٤٧/ب، والورقة ٢٠٧/ب، والورقة ٢١٠/ب

(٧) هي مقصورة ابن عروة أو مشهد ابن عروة الذي ذكره الدكتور يوسف العش في كتابه دور الكتب العربية. . ص٢٣١ قائلاً: يجب أن نعد مشهد ابن عروة إحدىٰ المؤسسات الملحقة بالجامع الأموي، وهو محمَّد بن عروة الموصلي، شرف الدين (ت ٦٢٠هـ) وسمي المشهد باسمه «لأنه كان مخزناً فيه آلات تتعلق بالجامع فعزله وبيضه وجدد في قبلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله، ووقف فيهما كتباً» النعيمي، الذيل، مخطوطة المجمع العلمي العربي ١ : ٧٣٨، مخطوطة ميونخ ١٩٢

(٨) الورقة ٥/ب، الصفحة ٣١، الرواية ٢١

(٩) الورقة ١٣٧/ب، الصفحة ٦٨٧، الرواية ٨٥٢

٧ـ كتابات تدل علىٰ تجزئة الأصل أولها: «آخر الجزء الأول من أصل الحافظ»[١] وآخرها: «آخر الجزء الحادي عشر من أصل الحافظ»[٢] وهي كاملة ومرتبة حسب التسلسل الصحيح. وهناك تجزئة خاصة بالنسخة كتبت في الزاوية العليا للورقة كل عشر ورقات، وأول ما ظهر منها «ثالثة»[٣] وآخره «ثامنة عشر»[٤] وفُقِدَ مما بينهما «سابعة» بسبب خرم أصاب الأصل، ولاحظت أنها بقيت تتكرر بانتظام إلى آخر الكتاب، ولكن لم يظهر منها عند التصوير إلا القليل من أسفل الحروف.

وكل الكتابات التي ذكرتها في الفقرتين ٦ و٧ تبدو بخط ناسخ واحد هو غير كاتب المتن وغير كاتب الحواشي والهوامش التي ذكرتها في الفقرات الخمس الأولىٰ.

٨ـ بلاغات راتبة عبارتها لا تتغير وهي: «بلغ بقراءة محمَّد بن أبي بكر بن خليل» وهو مالك النسخة أولها بهامش الرواية عن الشيخ أحمد بن محمَّد بن الحسن.. أبي الفضل الأصبهاني[٥]، وآخرها بهامش الرواية عن الشيخ هبة الله بن محمَّد بن الحسن.. أبي محمَّد الكاتب[٦].

٩ـ عناوين تناسب مضمون الروايات كتبت بحذاء اسم الشيخ لا بحذاء بداية الرواية ولو وقع كل منهما في ورقة، وبعض العناوين ناصل، ونادراً ما خلت منها بعض أوراق الأصل، وأندر منه تكون غير ملائمة لمضمون الرواية، وغالباً ما يعود ذلك إلى خرم أو غلط في ترتيب الأوراق كما في الورقة ١٤/ب حيث ضرب علىٰ عنوان (تفسير) في الهامش لأنه لا يناسب الرواية الواردة في بداية

---

(١) الورقة ١٧/ب، الصفحة ١٠٤، الرواية ١١٠

(٢) الورقة ٢٤٤/أ، الصفحة ١١٩٦، الرواية ١٥٦٣

(٣) الورقة ٢٠/أ، الصفحة ١٢٤، الرواية ١٣١

(٤) الورقة ١٧١/أ، الصفحة ٨٥٣.

(٥) الورقة ١٥/ب، الصفحة ٩٥، الرواية ٩٨

(٦) الورقة ٢٤٨/ب، الصفحة ١٢٢٢، الرواية ١٥٩٩

الورقة ١٥/أ. والحق أن هٰذه الورقة الأخيرة مقحمة هنا والعنوان مناسب لمضمون الحديث بحسب الترتيب الصحيح للأوراق، وهٰذا يؤكد لنا أن العناوين قديمة في النسخة.

والذي ظهر لي أن هٰذه العناوين والبلاغات المذكورة في الفقرة ٨ قد كتبتها يد واحدة عند قراءتها علىٰ تاج الدين بن زين الأمناء وربما يكون كاتبها هو القارىء نفسه ومالك النسخة محمَّد بن أبي بكر بن خليل.

وهكذا يتضح أن هٰذه النسخة نسخة نفيسة قريبة العهد بالمصنف قرئت مرات عديدة علىٰ تلامذته وأقاربه وعورضت بأصلها المكتوب بخط المصنف نفسه ثلاث مرات علىٰ الأقل، وضبطت ضبطاً ممتازاً فلم يترك فيها ما يخالف الأصل مهما كان الخلاف طفيفاً، فمن أمثلة ذٰلكَ أن نسبة أحد رجال السند وهو القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن بن أحمد كانت قد كتبت (الحيري) فضرب عليها وأصلحت في الهامش (الحرشي) مع أنه معروف بالنسبتين جميعاً كما ورد في موضع آخر من هٰذا الكتاب وفي مراجع ترجمته[1].

٥ـ عمل المصنف ومنهجه في التأليف:

أشار الحافظ ابن عساكر في مقدمته الموجزة إلىٰ الخطة التي سيتبعها في عمله إذ قال: «هٰذا كتاب معجم أسماء الشيوخ الذين سمعت منهم في الأمصار، والذين أجازوا لي من أهل النواحي والأقطار، أخرجت أسماءهم علىٰ ترتيب حروف المعجم في أسمائهم وأسماء أجدادهم وآبائهم باعتبار الحروف في توالي الأسماء، من غير مراعاة تقديم الأكابر والعظماء، غير أني بدأت في باب الألف بتقديم ذكر من اسمه أحمد، تبركاً باسم نبينا ﷺ لما كان ذكره أولىٰ وأحمد، وأوردت عن كل واحد منهم حديثاً أو حكاية أو إنشاداً ومن لم يتفق لي إيراد شيء عنه في الحال، ذكرت اسمه في موضعه رجاء أن يقع لي

---

(١) انظر صفحة ١٠٩٩، التعليق رقم ٣

في الاستقبال»[1]. وقد التزم فعلاً بهٰذه الخطة فلم يترجم لشيوخه ولم يصفهم إلا بإشارات عابرة كأن يقول: «وكان من الأخيار»[2] أو «وكان حجاجاً»[3] والمواضع القليلة التي ذكرت فيها سنة وفاة الشيخ كانت مضافة في الحواشي، فلعل ولده القاسم هو الذي أضافها، أما هو فكان جل اهتمامه منصباً علىٰ الرواية وطريقها ومكانها ونوعها.. ولم يميز بين من سمع منهم خبراً واحداً ومن سمع منهم كتباً كاملة..

أما بالنسبة لترتيب ذكر أسماء الشيوخ بحسب حروف المعجم فقد كانت معظم مخالفاته له من النوع الذي تعارف عليه المصنفون في عصره وفي تراثنا الإسلامي عامة فقد قدم ـ كما قال ـ ذكر أحمد في باب الألف، وكذٰلكَ قدم اسم محمَّد في باب الميم، وقدَّم الأسماء التي علىٰ التعبيد في باب العين فذكر أولاً عبد الله ثم عبيد الله ثم عبد الأعلىٰ فعبد الأول.. الخ، وفي باب السين ذكر سعد الله قبل سعد، وفي باب الفاء فضل الله قبل فضل، وكذا كل اسم أضيف إلى اسم الجلالة، وقدم ذكر طاهر علىٰ طالب في باب الطاء، وذكر الحسن فالحسين علىٰ حسان وحسكا في باب الحاء وذكر خليل علىٰ خليفة في باب الخاء.. ووضع باب الواو قبل باب الهاء علىٰ الطريقة التي شاعت في عصره وبقيت بعده زمناً طويلاً[4]، وخص اللام ألف بباب خاص وضعه قبل الباب الأخير وهو باب الياء..

ووجدت غير هٰذه التجاوزات التقليدية للترتيب الهجائي المعروف في عصرنا أشياءَ أخرىٰ كثيرة يمكن أن تعزىٰ إلىٰ النسيان والغلط، فقد يُقدِّم أحدهم أو

---

(١) انظر صفحة ٨.

(٢) انظر صفحة ٩.

(٣) انظر صفحة ١٠.

(٤) هكذا ترتيب الحروف في القاموس المحيط وتاج العروس وغيرهما من المصنفات التي تأثر مؤلفوها بالثقافة الفارسية.

يؤخره عن موضعه الصحيح لأنه نسي اسم أبيه أو جده[1]، أو يسهو عن الترتيب فيخل به إخلالاً طفيفاً كذكر نورج بعد نوشتكين ونوشروان، أو يقدم ذكر شيخ اسمه أبيه الحسين علىٰ شيخ اسم أبيه الحسن أو يهمل مراعاة الترتيب في اسم الجد[2]، ومن هذا النوع أيضاً ذكره سعيد قبل سعادة وحيدرة قبل حيدر وهدية قبل همام وزيد قبل زياد.

وقد لاحظت وجود تشابه أحياناً في موضوعات الروايات المتتالية؛ فمن ذٰلكَ مثلاً أن الرواية عن الحسين بن أحمد كانت حديث عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ: «إذا أنفقت المرأة من بيت زوجها غير مفسدة..» والرواية التالية قوله ﷺ لهند بنت عتبة «خذي ما يكفيك وابنك بالمعروف»[3]، والروايتان ٨٧١ و٨٧٢ في كل منهما حديثٌ مرفوعٌ يُعلي من شأن الشيخ ويبين أن له فضلاً ومكانة عند الله والناس لمجرد تقدمه في السن، وكلاهما حديث منكر بَيَّنَ المصنفُ وجه الضعف فيه[4]، وفي الروايتين ١٤٨٩ و١٤٩١ نجد الحديث نفسه تقريباً، وإن دل هٰذا علىٰ شيء فهو يدل علىٰ سعة محفوظ المصنف إلىٰ حد يبيح له أن يظهر شيئاً من التوافق بين موضوعات الروايات سواء حرص علىٰ هٰذا أم لا، وعلىٰ كل حال فإن سعة محفوظ المصنف أمر لم يختلف عليه اثنان ممن ترجم له قديماً وحديثاً. لكن بعض القدماء والمحدثين عابوا عليه أنه يجمع الأحاديث الكثيرة فيلقيها على عواهنها دون أن ينبه على ما قد يكون فيها من ضعف أو خلل، فمن ذلك ما جاء في الوافي بالوفيات: «قال الشيخ شمس الدين: وهو مع جلالته وحفظه يروي الأحاديث الواهية والموضوعة ولا يثبتها، وكذا عامة الحفاظ الذين بعد القرون الثلاثة إلا من شاء ربك، فليسألنهم ربك عن ذٰلكَ، وأيُّ فائدة لمعرفة الرجال والمصنفات

---

(١) انظر الرواية ١٢٧ ص١١٩

(٢) انظر الروايات: ٧٦ و٧٧، و١١٥٩ وما يليها.

(٣) الروايتان ٣١٩ و٣٢٠

(٤) في الصفحة ٣٠٧ وما يليها.

والتاريخ والجرح والتعديل إلا كشف الحديث المكذوب وهتكه ؟»[1]. وفي العصر الحديث قال الشيخ طاهر الجزائري: «واعلم أن ابن عساكر من المكثرين في الرواية، ولكن كان قليل التمييز بين المرويات، وهٰذا كثير لمن اختبر»[2].

وتصدق هٰذه الأحكام أكثر ما تصدق على عمله في التاريخ، فقد كان همه فيه الجمع والاستيفاء ولَمَّ الآراء المتضاربة، مع التهرب من الحكم على الأخبار، وخاصة منها ما يتصل بأحداث سياسية دامية، وكذلك ما يخاطب به عامة الناس كالمجالس التي كان يعقدها في الجامع فقد كان يستوفي الروايات والأحاديث حول الموضوع المحدد للمجلس بادئاً بأصحها وأعلاها معقباً بالحسن منها، وقد يروي بعد ذٰلكَ الضعيف دون انتقاده لأنه مما يجوز الأخذ به في مجال الوعظ والترغيب والترهيب، ألم يكن يختم مجالسه بالملح والطرائف والشعر ؟!

أما في كتاب الشيوخ فقد لاحظت عنده عناية واضحة بطرق الرواية ودراسة الأسانيد ورجالها، فكان علىٰ الغالب يعلق علىٰ الحديث بعد روايته بأن يخرجه من الصحيحين قائلاً: متفق عليه، أو يخرجه من طريق مسلم، أو البخاري ذاكراً إسنادهما إلىٰ الموضع الذي يلتقي مع إسناده هو. ومن الأمثلة الشاهدة علىٰ معرفته الكاملة لما في الصحيحين ما فعله في الرواية رقم ٦٤٥[3] إذ روىٰ عن شيخ له حديثاً من طريق الحاكم النيسابوري في المستدرك، ثم علق عليه قائلاً: «أخرجه مسلم عن هارون بن سعيد وأحمد بن عيسىٰ عن ابن وهب [وعند هٰذا الرجل يلتقي إسناد الحاكم بإسناد مسلم]، واستدراك الحاكم له عجب».

---

(١) الوافي بالوفيات ١٩ : ١٨٦/ ب (مخطوط).

(٢) التذكرة: مخطوطة في الظاهرية ـ رقم ١١٤٧٨ صفحة ٢٤. نقلته عن كتاب ابن عساكر ص ١٠٩.

(٣) انظر الصفحتين ٥٢٤ و٥٢٥

وهو مع ذٰلكَ قد يهم فينسب ما لمسلم للبخاري[١]، وما للبخاري لمسلم[٢]. وقد يقول بعد الحديث أخرجه البخاري فنجده في الأدب المفرد، أو أخرجه النسائي فنجده في عمل اليوم والليلة، وهٰذا كثير وليس من الوهم في شيء. وقد يقول: هذا حديث صحيح أو حسن دون أن يخرجه، وقد يسكت عنه إن كان أقل من هٰذا، إلا أنه يعلق علىٰ الغريب والفرد والمنكر ويمحص الروايات تمحيصاً يدل علىٰ طول باعه في معرفة الأسانيد والرجال[٣]، ويبين نقطة الضعف في الحديث كقوله معلِّقاً علىٰ رواية في إسنادها رجل اسمه محمَّد بن عبد الملك القناطري: «هٰذا حديث منكر والقناطيري كذاب، وإنما سمي القناطيري لأنه كان يكذب قناطير»[٤] فنُقل عنه هذا التجريح في ميزان الاعتدال، ولسان الميزان. وفي تعليقه علىٰ حديث آخر قال: «هٰذا حديث منكر، والحمل فيه علىٰ البكري أو علي بن زيد، ونعيم بن حماد وإن كان فيه لين فلا يحتمل مثل هذا»[٥].. ومن أمثلة تدقيقه في الأسانيد ولو كانت في الصحيحين مع التنبيه علىٰ ما فيها وتحديده بدقة تعليقه علىٰ حديث أخرجه البخاري عن أبي الأحوص إذ قال: «وذكر رفاعة أبي عباية فيه وهم تفرد به أبو الأحوص. وقد رواه سفيان وعمر ابنا سعيد الثوريان عن أبيهما سعيد بن مسروق ولم يذكراه، ووافقهما علىٰ ذٰلكَ شعبة وأبو عوانة وزائدة بن قدامة، وإسماعيل بن مسلم، وعمر بن عبيد الطنافسي، عن سعيد.»[٦] فهو ينتقد عيب هٰذا الإسناد مع علمه بأن الحديث صحيح خال من العيب من طرقه الأخرىٰ،

---

(١) كما في الرواية ١٥٦ ص: ١٤٣ و١٤٤، التعليق رقم (٢).

(٢) كما في الرواية ٤٠٨. انظر ص: ٤٣٠، التعليق (٤).

(٣) انظر مثلاً علىٰ هٰذه الرواية رقم ٨ في الصفحات من ١٧ إلىٰ ١٩.

(٤) انظر الرواية رقم ٨٧١ في الصفحة ٧٠٣ وما بعدها، والتعليق رقم (٤) في الصفحة نفسها.

(٥) الرواية رقم ٨٧٢

(٦) الرواية رقم ١٤٠٢. ص: ١٠٨٣ و١٠٨٤

ويشبه هٰذا ما رواه عن شيخ له وفي إسناده: «ثنا حماد بن زيد، عن واصل مولىٰ ابن عيينة عن يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يعمر. .» فعقب عليه قائلاً: «هكذا يقول حماد بن زيد. ورواه مهدي بن ميمون، عن واصل، فزاد في إسناده بعد يحيىٰ بن يعمر أبا الأسود الديلي، وكذٰلكَ أخرجه مسلم في صحيحه. والاضطراب فيه من واصل.»[1].

والملاحظ في المشيخة بشكل عام أن الحافظ كان يتخير ويتنوق في مروياته عن كل شيخ فلا يروي أي خبر يخطر في باله ما دامت مروياته عن الشيخ كثيرة، بل يتخير من الحديث أصحه أو أعز طرقه أو أعلاها، ومن الشعر أقربه إلىٰ الزهد والعفة والدين، فنجده يروي عن شيخه محمَّد بن الحسن بن منصور بن الأقفاصي أبياتاً في التوحيد، بينما روىٰ عنه في التاريخ أشعاراً في الغزل ووصف البراغيث والتوافه[2].

ومن الملاحظات العابرة التي لفتت نظري في المشيخة أنه حين يروي الأحاديث القدسية قلما يبين ذٰلكَ فيقول: عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه، أو يقول الله تعالىٰ، بل يرويها بعد رفعها إلىٰ الرسول ﷺ مباشرة، وإن كان أمرها مما لا يخفىٰ علىٰ العامة بله الخاصة. وكتاب المشيخة ليس من الكتب التي تهم عامة الناس في شيء.

هٰذه أهم الأشياء التي لاحظتها من خطة الشيخ الحافظ وأسلوبه في العمل، فأرجو ألا أكون فيها منحازة إليه ولا متجنية عليه.

* * *

---

(١) الرواية رقم ١٤٤٣. ص: ١١١٢ و١١١٣.

(٢) الرواية رقم ١١٥٤. ص: ٩١٢.

د ـ عملي في تحقيق الكتاب

اعتمدت في عملي علىٰ النسخة الوحيدة الباقية من الكتاب، وهي كما قلت نسخة نفيسة مضبوطة، لكنها قديمة قد عدت عليها عوادي الزمان، وتناقلتها الأيدي، فأصابها ما أصابها من فقدان بعض أوراقها أو اضطراب ترتيبها أو اهتراء أطرافها أو تعرضها للرطوبة ونصول لونها، وهي بعدُ نسخة مصورة يعتريها ما قد يعتري المصورات من ضياع بعض ما كتب علىٰ الأطراف البعيدة من الورقة أو تغطية بعض الكلام بيد المصور، أو غير ذٰلكَ.. ولو لم يحدث شيء من هٰذا فمن يقول إن الصورة كالأصل؟!

ولأنها نسخة وحيدة ففي العمل علىٰ تحقيقها صعوبات جمة لا يدركها إلا من عمل علىٰ أصل فريد لكنني بذلت أقصىٰ الجهد لتذليل العقبات متبعة الخطة التالية:

١ـ جعلت همي الأول أن أقدم الكتاب إلىٰ القارىء بأكمل صورة ممكنة وأكثرها مطابقة للأصل فإن أصابه خرم أو غموض بحثت عن المفقود من الأخبار أو الأسانيد في موارده إن عثرت عليها، فإن لم أجدها اجتهدت في الاستنتاج، أو خمنت، أو أعلنت عجزي عن التوصل إلىٰ يقين بعد البحث في المظان. وبينت كل هٰذا في التعليقات.

٢ـ اكتفىٰ المصنف بذكر اسم الشيخ كاملاً ورواية خبر واحد عنه ولم يترجمه، وقد حرصت على أن أبحث عن موارد الترجمة لكل شيخ وأن أسجل تاريخ ولادته ووفاته إذا عثرت عليهما دون أن أذكر ما قد يقع بين المراجع من اختلافات طفيفة في اسم آباء الشيخ أو نسبته وألقابه أو سنة وفاته، إلا إن وجدت لذٰلكَ فائدة كبيرة.

٣ـ لم أغير في النص إلا ما لا وجه له مقبولاً في نحو العربية وإعرابها، كأن تكون الكلمة نكرة منصوبة وقد كتبت بلا ألف في آخرها فأثبت الصواب في المتن، وأنبه علىٰ ما ورد في الأصل في التعليقات، ولا أصلح كلمة من الأصل ولها وجه مقبول في العربية ولو كان ضعيفاً، بل أثبتها كما هي وأشير إلىٰ ما هو أولىٰ في التعليقات.

٤ـ كتبت حسب قواعد الإملاء الحديثة فأثبت الهمزات ولم يكن من عادة القدماء أن يكتبوها إلا ألفاً أو واواً أو ياء، وميزت آخر الكلمة بين الألف التي ترسم ألفاً والأخرىٰ التي ترسم ياء، وهو ما لا يهتم له النساخ القدامىٰ، وأثبت الألفات التي لا يكتبونها في مثل «خالد» و«مالك» و«حارث» ونعمان وغيرها، ولم أشر إلىٰ هٰذه الاختلافات إلا نادراً.

٥ـ التزمت بتخريج الآيات القرآنية وتسجيل الآية كاملة في التعليقات إذا ذكر جزء منها فقط في كلام المصنف.

٦ـ خرَّجت الأحاديث الشريفة بتخريج الحافظ لها، فإن قال مثلاً رواه البخاري أو مسلم عن فلان أو فلان دللت في التعليقات علىٰ الرواية المقصودة في كتاب البخاري أو مسلم أو غيرهما، وإن اكتفىٰ بالقول إنه صحيح دللت عليه في أبرز كتب الصحيح والسنن، وإن ضَعَّفه بحثت عنه في كتب الضعفاء، فإن سكت عنه تركته علىٰ الغالب فلم أعلق إلا على ما علق عليه هو.

٧ـ شرحت بعض ما وجدت حاجة إلىٰ شرحه من ألفاظ الكتاب معتمدة علىٰ معجمات اللغة عامة والنهاية في غريب الحديث خاصة.

٨ـ إذا حدث التباس في أسماء بعض رجال السند ضبطته بعد العودة إلىٰ كتب الرجال وأشرت إلىٰ مظان ترجمته.

٩ـ إذا علق المصنف علىٰ أحد رجال السند تضعيفاً أو توثيقاً ذكرت في الحواشي أهم مراجع ترجمته في كتب الرجال، وربما قدمت ترجمة موجزة لبعضهم إن وجدت لذٰلكَ فائدة.

١٠ـ عرفت بكل موضع أو بلد عرض ذكره في الكتاب سواء في الأسانيد أو الأخبار، إن أمكنني العثور عليهِ في كتب البلدان، وضبطته معتمدة عليها وعلىٰ كتب الأنساب، وذلك عند ذكره للمرة الأولىٰ، وقد يتكرر التعريف سهواً أو لمزيد فائدة.

١١ـ عند ضبطي لأسماء البلدان وأنساب الرجال كنت أنقل ما أجده من خلاف بين كتب الرجال وكتب البلدان وخاصة بين السمعاني وياقوت وأعتمد علىٰ الغالب ضبط ياقوت.

١٢ـ رقمت أسماء الشيوخ رقماً متسلسلاً بما في ذلكَ الشيوخ الذين ذكرت أسماؤهم في هوامش الكتاب دون رواية عنهم، فكان عددهم ١٦٢١ وهو على الرغم من الخروم التي اعترت النسخة أقرب ما يكون إلى مجموع ما ذكره الذهبي وهو ١٦٣٦، بينما ذكرت المراجع الأخرى أن عدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ لأنها أحصت شيوخ السماع فقط.

١٣ـ صنعت فهارس فنية كاملة للكتاب وجعلت عمدتي فيها أرقام الشيوخ وليس أرقام الصفحات.

وبعد فقد أخلصت لله عملي، وبذلت جهدي، فإن وُفِّقْتُ فبمِنَّة من الله وفضل، وإن أخفقتُ فمنه العفو والغفران. وأرجو من القارىء الكريم أن يلتمس لي العذر فيما قد يجده من خطأ أو تقصير، فقد شرعت في هٰذا العمل منذ سنوات طويلة إذ كنت عاملة في مجمع اللغة العربية، أنعم برعاية أكابر الأساتيذ وعلى رأسهم الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع أطال الله بقاءه ذخراً للعلم وأهله، وبمساعدة زملاء كرام وأولهم الأستاذة سكينة الشهابي التي تكرمت بمراجعة الكتاب معي على الأصل المخطوط جزاها الله عني خيراً، ومن حولي مراجع ثمينة مما تحفل به خزانة المجمع، وقد أتيح لي استخدامها بكرم وسخاء، فما لبثت الظروف أن طوحت بي بعيداً عن هٰذا كله إذ اضطرتني إلىٰ السفر خارج القطر والإقامة في بلدة صغيرة لا تصل يدي فيها إلا إلىٰ القليل مما

يحتاجه المحقق في عمله، لكنني أصررت علىٰ إنجاز ما بدأته، وإن اقتضاني الكثير من سنوات عمري، فلعل لي في هٰذا عذراً عما لا بد أن يقع في كل عمل من هنات، أسأله عز وجل الستر والعافية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *